

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَنَا مَا نَبِغِي هَذِهِ  
بِضَاعَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ  
يَسِيرٍ﴾ (٦٥)

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٠]

تنتقل بنا هذه الآية، أخي المؤمن، لتغيّر لون المشهد العام الذي كان سائداً خلال الآيات السابقة عليها، وقد رأينا كيف أنه كان مشحوناً بالحزن والقلق والتوتر، وكان الإحصار قد بلغ مداه، سواءً لناحية عدم نجاح رحلة الإخوة إلى مصر، أو لناحية جواب يعقوب عليه السلام على طلبهم بأخذ ابنه الأصغر منه، فإذا بهذه الآية تحمّل انفراجاً واسعاً، وتبدّل معها الوقائع لتحمّل طيف الأحداث التي ستوالى تباعاً كما سنرى في لاحق الآيات.

وأتوقّف هنا قليلاً لأقارب هذا المبدأ العام على كل ظروف حياتنا: فإننا نمُرُّ بأزمات قد تبدو خانقة، ويتراءى لنا أن جميع الطرق والأبواب مسدودة، وكلّ السبل مقلّعة، فإذا بالفرج يأتي من حيث لا ندرى، يُرسله الله تعالى تشبثاً لقلوبنا، ومصدّقاً لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾<sup>(١)</sup>.

يقول الله تعالى في الآية موضوع تأملنا اليوم: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

اللطفة الأولى: في تأملنا لتوقيت فتح المتاع:

لقد قطعوا مسافة بعيدة جداً، ساروا خلالها جيناً، وأنأخوا واستراخوا جيناً

(١) [سورة الشرح، الآية: ٥].

آخِر، واستَعْمَلُوا مِنْ أَدْوَاتِ الرَّحَلَةِ مَا يَحْتَاجُهُ الْمُسَافِرُ عَادَةً، إِلَّا أَنَّ هَذَا كُلَّهُ، مَعَ حُضُورِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسَةِ، عِنْدَ الْإِخْوَةِ الْعَشْرَةِ، لَمْ يَكُنْ كَافِيًا لِمَعْرِفَةِ وُجُودِ الْبِضَاعَةِ فِي الرَّحَالِ، طِيلَةَ فَتْرَةِ السَّفَرِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُدْهِشٌ حَقًّا، وَيَسْتَحِقُّ مِنَّا التَّأَمُّلَ وَالتَّسَاوُلَ، إِلَّا أَنَّ دَهْشَتَنَا تَزُولُ حِينَ نُسَلِّمُ بِمَسْأَلَةِ التَّغْمِيَةِ. وَمُفَادَهَا: وَجُودُ مَشِيئَةِ إِلَهِيَّةِ تَقْضِي بِإِبْقَاءِ مَسْأَلَةِ وُجُودِ الْبِضَاعَةِ فِي الرَّحَالِ خَافِيَةً عَلَى الْإِخْوَةِ، حَتَّى وَصُولِهِمْ إِلَى مَجْلِسِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكانت أدواتها تعطيل كل آيات التعريف التي يتمتع بها كل واحد منهم، من نظري، وسمع ولمس، وتحليل عقلي، واستنتاج منطقي، ومقارنة حسية، وتساؤل داخلي عن تصرف الدواب وحالها، وحس التحقق من عدم نسيان أي شيء قبل المغادرة. . كل هذا، تعطل لدى الإخوة لأمر أراد الله تعالى، فتسير خطة يوسف عليه السلام، على النحو الذي أراد.

**اللطيفة الثانية:** في وقوفنا عند تصرف الإخوة حال وصولهم إلى ديارهم: أو شيء فعلوه، هو أنهم أقبلوا على أبيهم وسلموا عليه، حتى قبل أن يفتحوها متاعهم.

وهنا نلاحظ أدب الأبناء مع يعقوب عليه السلام، فلقد بدأوا بالسلام عليه قبل أي شيء، ثم انطلقوا إلى حل الرحال.

وهذه إشارات لطيفة نتعلم فيها من أدب القرآن الكريم، كيف نكون مع آبائنا في احترامهم وخطب ودهم وطلب رضاهم.

**اللطيفة الثالثة:** في وقوفنا عند الأسلوب اللغوي الذي نلاحظه في هذه الآية، والذي يتناسب مع جو الانفراج الذي تخمله، فنلاحظ سهولة انسياب العبارة في إيجاز بديع يتقل معه إلى الذهن الكثير من الصور الحسية والمعنوية:

فترى الإخوة يفتحون الأمتعة، وقد رفع الله تعالى عن أبصارهم الغمة، فرأوا مشهداً جميلاً لم يتوقعوه أبداً. .

وَنَسْتَشْعِرُ مَعَهُمْ فَرَحَهُمْ بِرُؤْيَا الْبِضَاعَةِ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ احْتَفَظَ بِهَا،  
وَنَسْتَشْعِرُ مَعَهُمْ الدَّهْشَةَ وَالْإِرْبَاكَ فِي مُحَاوَلَةِ فَهْمِ مَا حَصَلَ، وَكَيْفَ حَصَلَ،  
وَنَسْتَشْعِرُ مَعَهُمْ تَجَدُّدَ الْأَمَالِ فِي حَلِّ عُقْدَتِهِمْ، وَانْتِهَاءِ مِخْتَبِهِمْ.

فَتَدَاوَعَتْ لَدَيْهِمُ الْأَفْكَارُ، وَانْقَلَبَ الْإِحْبَاطُ عَزِيمَةً وَنَشَاطًا، فَهَرَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ  
مِنْ جَدِيدٍ، أَكْثَرَ جُرْأَةً وَأَعَزَّ ثِقَةً، وَعَادُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُ إِسْرَالَ أَخِيهِمْ مَعَهُمْ.

نَتَابِعُ مَعَ الْآيَةِ فَنَقْرَأُ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ  
أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بِعِيرِ ذَلِكَ كَيْلٍ سِيرٍ﴾ ..

#### في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في وقوفنا عند الأسلوب الخطابِي الذي يَعْتَمِدُهُ الْإِخْوَةُ فِي  
مُخَاطَبَةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فَمِنْدُ الْآيَاتِ الْأُولَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَمَعَ بَدْءِ كُلِّ حَدِيثٍ يَجْرِي بَيْنَ  
يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَبْنَائِهِ، نَسْمَعُ الْإِخْوَةَ يَقُولُونَ:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ عِنْدَ بَدْءِ مَجْلِسِ آخِرِ نَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا  
نَسْتَبِقُ﴾<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ عِنْدَ بَدْءِ الْمَجْلِسِ الثَّلَاثِ نَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا  
الْكَيْلُ﴾<sup>(٣)</sup>. وَهِيَ هُمْ فِي الْمَجْلِسِ الرَّابِعِ يَقُولُونَ:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾.

عِلْمًا بِأَنَّ الْمَعْنَى يَكْتُمِلُ دُونَ ذِكْرِ عِبَارَةِ يَا أَبَانَا.

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٦٣].

(١) [سورة يوسف، الآية: ١١].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ١٧].

وفي هذا، إشارةٌ أُخرى إلى الأدبِ القرآنيِّ في كيفية التعاملِ مع الآباءِ.  
**اللطفة الثانية:** في ملاحظتنا لهذا الزخمِ الكبيرِ الذي حوته الآيةُ الكريمة، يُظهرُ بوضوح، الإعجازُ القرآنيُّ في الإيجاز. ففي شطرِ آيةٍ واحدة، كان في خطابِ الأبناءِ إعلامٌ عن خمسةِ مواضيعٍ مُختلفة. كلُّ واحدٍ منها يحمل معنى خاصاً في تسلسلٍ منطقيٍّ بديعٍ:

**فقالوا أولاً:** ﴿يا أبانا ما نبغي﴾ وهُمُ بذلك يُشيرونَ إلى حلِّ العقْدِ التي تكاثرتْ عليهم، الواحدةُ تلوَ الأخرى، في تأزمٍ تصاعديٍّ حتى بلغتِ الذُرْوَةَ في الرفضِ المبدئيِّ ليعقوبَ عليه السلام، بإرسالِ ابنه الأصغرِ معهم، فكانَ في قولهم ﴿ما نبغي﴾، إيذانٌ بانفراجِ الموقفِ في جماليةٍ لغويةٍ نادرة..

**ثم قالوا ثانياً:** ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ وهنا أساسُ الانفراجِ الماديِّ. الذي بموجبه سيكونُ لهمُ القدرةُ على العوْدَةِ ثانيةً إلى عزيزِ مصر، للحصولِ على المَوْنِ.

**ثم قالوا ثالثاً:** ﴿ونمير أهلنا﴾ أي نُؤمِّنُ لهمُ الطَّعامَ اللازمَ في وقتِ عَزِّ الطَّعامِ في بقاعِ الأرض، وأصبحَ تأمينه أعلى أولويةٍ في اهتماماتِ الناس، فهمُ يُشيرونَ بذلك إلى مُوجبِ المحافظةِ على الحياة..

**ثم قالوا رابعاً:** ﴿ونحفظ أماننا﴾ أي إنَّ وجودَ البضاعةِ في الرِّحال، وهي بذلك بينَ أيدينا، يَضمُنُ لنا عندَ اصطحابِ أختينا سلامته، لتوافقِ حالنا معَ شروطِ العزيز، في مبادلةِ البضاعةِ بالطَّعامِ..

أما لو أخذنا أماننا دونَ البضاعة، فاحتمالُ الإرباكِ موجود.

**ثم قالوا خامساً:** ﴿ونزاد كئيلَ بعير﴾ وفي هذا إعمالُ للفِكرِ الرياضيِّ، في محاولةٍ تكثيفِ المنفعةِ المُحصَّلة، إذ إنَّ فيها رُفْعاً لمستوى الطَّمَأِينَةِ الذاتية، بوجودِ كميةٍ أكبرِ مِنَ الطَّعامِ، لعدمِ وضوحِ مَالِ القَحْطِ في حقِّهم.

**اللطفة الثالثة:** في ملاحظتنا للترتيب التصاعدي الذي اعتمده الاخوة في إقناع أبيهم بإرسال الأخ الأصغر معهم، وهذا يدل على ذكاء عالٍ، نتعلم منه أسلوب الإقناع التصاعدي التراكمي:

فقد بدأ بإحلال الطمأنينة بذكرهم لوجود البضاعة: وهذا دليل مادي محسوس، تحتاج إليه قاعدة الإقناع.

ثم ذكروا إشباع الحاجة، وفي هذا سد مصدر القلق في النفس.

ثم انطلقوا إلى التدليل على الحفظ المادي للأخ، حال ذهابه معهم. إذ إنه بُني على دليل مادي.

ثم رفَعوا مستوى الإقناع إلى أقصاه، حين صَوَّروا ازدياد الربح بكيل بعير إضافي.

ثم أنهوا جوارهم الإقناعي بعبارة لطيفة بقولهم: ﴿ذلك كيلٌ يسير﴾.

#### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الإقناع يحتاج عناصر ومقومات، وينبغي أن يبنى على أسلوب متين متماسك، ولقد سلك أبناء يعقوب هذا المسلك مستعملين كل عناصر الإقناع: تصوير جسامة المشكلة والواقع المعاش، وذكر الخيارات المفتوحة، والمفاضلة بينها، واحتساب مقدار الخسارة، إيضاح مقدار الربح وتبيين مدى المخاطرة، ثم الوصول إلى النتيجة المرجوة.

٢ - للدلالة على أن بر الوالدين مقدم على جلب المصالح والتلهي بالتحصيل المادي. ونأخذ المثال الصريح الواضح فيما فعله أبناء يعقوب عليه السلام، إذ أنهم أول ما فعلوه عند وصولهم أنهم أتوا ليسلموا على أبيهم، ثم التفتوا بعد ذلك لفتح متاعهم.

ثم يقول الله تعالى :

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ .

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥١]

توصلنا هذه الآية أخي المؤمن، إلى نتيجة ما قرره نبي الله يعقوب عليه السلام، بشأن إرسال ابنه الأصغر، مع الإخوة، وقد تأملنا في الآية السابقة سعة الانفراج الذي حصل بعد ضيق وإحصار، في تتابع هذا المشهد من الحوار بين يعقوب عليه السلام، وأبنائه، وهو حوار، اتسم في بدايته بالأدب، ثم بالطلب، ثم بالرّفص، ثم بالدّهشة والاستغراب، ثم بانتعاش الآمال، ثم بعودة الطلب.

يقول الله تعالى في بداية الآية حكاية عن نبي الله يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

في هذا الشطر من الآية، لطائف عدة:

**اللطفية الأولى:** في وقوفنا عند الأسلوب البلاغي الجميل، الذي اعتمده يعقوب عليه السلام في إجابته لطلب أبنائه. فهو يقول: لن أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: سَأُرْسِلُهُ مَعَكُمْ.

إلا أنه اشترط للإرسال أمراً عظيماً، يَحْسَبُهُ النَّاسُ هِينًا وهو عند الله عظيم: ﴿أَنْ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ .

فعلى الرغم من التجربة المريرة السابقة، يفقد يوسف عليه السلام، لم يفقد يعقوب عليه السلام ثِقَتَهُ بِعُمُقِ إِيمَانِ أبنائه وخوفهم من الله تعالى، وهو على يقين بأن إعطاءهم الموثق من الله تعالى، هو التزام راسخ منهم بالمحافظة عليه.

وبملاحظتنا لنوعية الحوار الذي دار بين الأبناء ويعقوب عليه السلام منذ سنوات عديدة قبل أخذهم يوسف عليه السلام - لم يَشْتَرِطْ يعقوب عليه السلام عليهم الموثق من الله تعالى، قبل أخذ يوسف عليه السلام بإعادته، لعدم وجود السابقة. وفي هذا تعليم قرآني لنا، بوجوب الإفادة من التجارب السابقة، وعدم الوقوع في الأخطاء ذاتها مرة أخرى.

**اللطيفة الثانية:** لغوية، في استمتاعنا بتناغم العبارة في قول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾. ومعنى العبارة: تُعْطُونِي مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى، بأنكم ستعودون به، وشتان بين جمالية الآية القرآنية، وبين ما سقنا من معنى مُرادف.

**اللطيفة الثالثة:** في تأملنا لعمق إيمان يعقوب عليه السلام، الذي يتبدى في هذه اللحظات العصبية، عند اتخاذ قرار الإرسال:

فإن أضعب شيء عليه في الدنيا، في هذه اللحظات، هي إرسال ابنه الأصغر بعيداً عنه، إلى حيث لا يدري، إلى بلد بعيد، تحفه المخاطر من كل جهة.

وهو، رغبة منه بالحصول على المؤمن، قبل إرساله مُشْتَرِطاً على أبنائه بذلك كل الجهد في الحفاظ عليه والعودة به.

وهو رُغْمَ كُلِّ جِرْصِهِ على عودة الابن الأصغر، ارتضى بعدم عودته إذا شاء الله تعالى عدم العودة، وهذه قمة التسليم المطلق بقضاء الله تعالى، إذ نسّمعه يقول علناً أمام الأبناء. مُعلّماً لنا شجاعة الجهر بالتسليم بقضاء الله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

وبيان قوله: رُغْمَ شِدَّةِ تَعَلُّقِي بَوْلَدِي الْأَصْغَرِ، وهو الذي يُوَاسِي وَخَدَتِي

بعد ذهاب يوسف عليه السلام، ورُغِمَ حِرْصِي على عدم ذهابه بعيداً عني، ورُغِمَ أتي رَضِينْتُ مُرْغَمًا بذهابه معكم. في صُونِكُمْ ورعايتكم وشديد حِرْصِكُمْ على العناية به، إلا أنني أَسَلُّمُ بقضاء الله تعالى إذا ما قَضَى أَلَا يَعُودَ إِلَيَّ، راضياً قانِعاً قانتاً لله تعالى، مُسَلِّماً له في كُلِّ ما أَمَرَ وَقَضَى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيَةِ، لطائفُ عِدَّة:

**اللطيفة الأولى:** في تأملنا لهذا الشعورِ الخَفِيِّ الذي يَغْمُرُنَا حينَ نَسْمَعُ قولَ الله تعالى، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ، أَنَّهُمْ حَقًّا صَادِقُونَ في وِعْدِهِمْ. ولم يَخَامِرِ الشُّكُّ إنساناً قَرَأَ هذه الآيةَ في يومٍ مِنَ الأيامِ، إلا وَوَقَّرَ في قَلْبِهِ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ، وهذا ما نُسَمِّيهِ بِسُخْرِ بَيانِ القرآنِ الكريمِ، وهذا سِرٌّ من أسرارِ الله تعالى في القرآنِ الكريمِ، إذ تَتَضَمَّنُ الكلماتُ والعباراتُ قوَّةَ إقناعٍ لا تُضَاهِي، يطمئنُّ بها قلبُ المؤمنِ فتزِيدُهُ إيماناً وثقةً، ولو تَجَرَّدَ كُلُّ البَشَرِ من أحكامِهِم المَسْبُوقَةِ على دينِ الإسلامِ، وانعَتَقُوا لبرهيةٍ وجيزةٍ من وسوسةِ الشيطانِ، وقرأوا آياتِ القرآنِ الكريمِ، لوَصَلُوا حَتْمًا إلى نورِ الهدايةِ.

**اللطيفة الثانية:** في تأملنا لحالِ الأبناءِ، وهم يُعْطَوْنَ المَوْثِقَ لأبيهم بالمحافظةِ على أخيهم الأصغر:

فلقد أعادَهُم الموقِفُ الحاليُّ إلى مَوْقِفِهِم السابقِ، حينَ أخذوا يُوسِفُ عليه السلامِ، وكانت نِيَّتُهُم غيرَ سليمةٍ، لكنَّ واقعَ حالِ مَوْقِفِهِم في هذه اللحظاتِ مُخْتَلِفٌ تماماً:

فلقد أعطت نتيجةَ الرحلةِ وما رافَقَها من أحداثٍ زَخْمًا عالياً جَعَلَهُم في موقِفِ الباحثِ عن حلِّ لمسألةِ الطعامِ.

وَهُم الآنَ فِي مَوْضِعِ مُؤَاخَذَةٍ وَإِصْلَاحِ لِمَا تَسَبَّبُوا بِهِ مِنْ أَلَمٍ وَأَذَى لَوَالِدِهِمْ، وَسَيُذَلُّونَ قَصَارَى جُهْدِهِمْ لِإِثْبَاتِ حُسْنِ نِيَّتِهِمْ.

وهم بحاجة حقاً لإجابة طلب العزيز، برؤية أخيهم الأصغر، فقط ليس إلا في ظنهم، وستكون مسألة سهلة بسيطة لا خوف فيها ولا خطر فيها.

**اللطيفة الثالثة:** في وقوفنا عند دقة العبارة القرآنية، فيما أجاب يعقوب عليه السلام حين أعطوه الموثق إذ قال: ﴿الله على ما نقول وكيل﴾.

أما نحن، فلقد اعتدنا، في مثل هذه المواقف، أن نسمع القائل: والله على ما نقول شهيد...

إلا أن قول يعقوب عليه السلام هنا، وكيل، أبلغ وقعا وأغزر معنى:

فهو طلب ودعاء، في آن واحد، من الله تعالى بالمعونة والمساعدة في إتمام الأمر، وحين يقول وكيل، فهو يعلن بذلك اشتراكه مع أولاده في طلب المعونة من الله، وكأنه يصور لنا أنه يقف معهم في جهة واحدة، يطلبون معاً النصرة والمعونة.

أما أن نسمعه يقول شهيد. فهو تعبير عن إثبات معرفة الله تعالى لما يخلص من أمر الموثق، ثم إكمال لأمر صدقهم في حسن النية إلى الله تعالى، ويبقى هو في طرف، والأبناء في طرف آخر.

لقد أراد يعقوب عليه السلام أن يبلغنا أنه فعلاً صدقهم في قولهم وأنه أوكل أمره مع أبنائه إلى الله تعالى، لتيسير أمرهم.

فانظر أخي المؤمن إلى دقة القرآن في المعاني والإشارات.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مستوى التسليم المطلق بقضاء الله تعالى الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا ما أخلص عبادته لله تعالى . فهو بذلك يشعر أنه برعاية الله تعالى وتحت الطافه ، وهو مستعد أن يتخلى عن أعز ما يملك ، لعلمه بأن الله تعالى عليم بحاله ، ولن يتخلى عنه وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام حين قبل بتسليم ابنه الأصغر .

٢ - للدلالة على أن الخضوع لحكم الله تعالى ، أعلى بكثير من كل الرغبات والأهواء ، وكل حب نكنه لأبنائنا وأحبائنا ، فيعقوب عليه السلام . رغم كل حرصه وحبه لابنه الأصغر ، يرتضي مسبقاً بحكم الله تعالى إن كان هذا الحكم يقضي بعدم عودته إليه . وهكذا يجب أن نكون نحن أيضاً في تعاملنا مع طوارئ الحياة .

ثم يقول الله تعالى :

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنِّي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةً وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أُلْحِكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٢]

تحمل لنا هذه الآية ، أخي المؤمن ، على لسان يعقوب عليه السلام ، منهجاً عاماً في الحياة ، يضلح للتطبيق في كل زمان ومكان ، ويُعدُّ قاعدةً أساسيةً من قواعد علم الاجتماع ، كما أنَّ فيها مبدأً أساسياً من مبادئ العقيدة ، مع انسياق تطبيقه على العلوم البشرية كافة ، وخصوصاً في معالجة أمراض النفس ومشاكلها .

نبدأ بتأمل الآية الكريمة .

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ

مُتَفَرِّقَةٍ﴾ .

### في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في فهمنا للبعد الذي رمى إليه يعقوب عليه السلام. فلقد سبق للأبناء أن ذهبوا إلى مضر في رحلتهم الأولى، التي باءت بالفشل، ولم يدعهم في المرة الأولى أن يدخلوا من أبواب متفرقة.

ولقد تفتحت أذهانهم وأعينهم على حضارة عظيمة متقدمة، ورأوا المدينة والعمران، والأبنية والأبراج والطرق، ورأوا أن المدينة يدخل إليها من أبواب عديدة، ولعلهم نقلوا ذلك إلى يعقوب عليه السلام، فإذا به الآن، وهو يعد العدة لإرسال ابنه الأصغر معهم، يعمل على إفهامهم بوجوب توخي الحيط والحذر، وذلك بشخصهم نفسياً بطريقة تصاعديّة متدرّجة.

فإذا به يبدأ بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ تنبيهاً إلى وجوب عدم لفت الأنظار إليهم، وذلك لدفع الحسد عنهم من جهة، وإفهاماً لهم بأن الرحلة هذه المرة ليست رحلة عادية، بل على مستوى عظيم من الأهمية والتوتر.

**اللطيفة الثانية:** في وقوفنا عند قوله: ﴿يَا بَنِيَّ﴾ وهنا نستشعر الإيناس والرّضى، وكأنه بذلك يعلمهم عن القبول والتجاوب مع مسعاهم في تحصيل المؤمن، وفي ذلك أيضاً، إشارة ضمنية إلى وجوب الاستماع إلى ما سيلحق هذه العبارة من نصائح وتوجيه، فيكون وقع التوجيه أبلغ في نفس من أعلمته مسبقاً بحبك له وودك.

**اللطيفة الثالثة:** في وقوفنا عند دلائل ما يحمله هذا التوجيه من معنى:

فلقد عَلِمْنَا أَنَّ يوسفَ عليه السلام، كَانَ على درجةٍ عاليةٍ جداً مِنَ الجمال. ولا يَبْعُدُ أَنَّ يَتَمَتَّعَ إِخْوَتُهُ أَيضاً بِقِسْطٍ وافرٍ مِنْهُ.

ولقد عَلِمْنَا أَنَّ عَدَدَ الإخوةِ عَشْرَةٌ، يُضَافُ إِلَيْهِمُ الابْنُ الأصغر، فصَارَ العددُ أحدَ عَشْرَ رجلاً أصحابِ أشدِّاءِ إخوة، حسان الوجوه، وهذا أمرٌ نادرٌ الحصولِ بينَ البَشَرِ، وأغلبُ النَّاسِ تَتَمَنَّى أَنَّ تُرَزَقَ ذريةً تَتَمَتَّعُ بهذه المواصفات.

من هنا، جاءَ خوفُ يعقوبَ عليه السلامُ على أبنائه، إلا أنه ليس السببُ الأساسي، على ما سنرى في الآية اللاحقة.

ثم يقولُ اللهُ تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلامُ مُتَابِعاً: ﴿وما أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ اللهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

في هذا الشطرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

**اللطفية الأولى:** في ملاحظتنا لاستمرارِ الشَّخْنِ النَّفْسِيِّ الذي اعْتَمَدَهُ يعقوبُ عليه السلام لإفهامِ أبنائه دِقَّةَ وُضْعوبةِ المرحلةِ القادِمةِ عليهم في سَفَرِهِمْ.

فبعد أن نَصَحَهُمْ بالدخولِ مِنَ الأبوابِ المتفرقة، وهذه إشارةٌ أولى إلى وجوبِ أخذِ الحِيطَةِ والحَذَرِ.

أفهمهم أنه لا يستطيعُ مُسَاعَدَتَهُمْ، إذ إنه بعيدٌ عنهم، حتى وإن كان نبياً من أنبياءِ اللهُ تعالى، وأنه لا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، وهذه إشارةٌ ثانيةٌ إلى وجوبِ أخذِ الحِيطَةِ والحَذَرِ، بمستوى أعلى، فيكونُ بذلك قد بَلَغَ الأبناءَ ضَعْفَ حِيلَتِهِ عَن قِضَاءِ اللهُ تعالى وقَدَرِهِ، مُمَهِّداً لإعلانِ التسليمِ والتوَكُّلِ.

**اللطفية الثانية:** في وقوفنا عندَ قوةِ المعنى الذي يَحْمِلُهُ قولُهُ: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ اللهُ﴾، وهذا أصلٌ من أصولِ الدين، وَجَبَ علينا الوقوفُ عِنْدَهُ وتَأَمُّلُهُ وإعمالُهُ في كُلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتنا.

ففي ظاهر الحال، نتمتع في تنقلنا وتقلبنا في ساحات الدنيا ومدارجها بالقُدرة، والقُوَّة، ووسائل القَهْرِ، وتذليل المصاعِب: ويتمتع بعضنا بأسباب القيادة والرياسة والسلطة، وأدوات التحكُّم بحركة مجموعات من الناس، ولقد يذفع الغرورُ بعض هؤلاء القادة، للظنِّ بأنهم حقيقةً أصحاب الأمرِ والنهي المطلقِ دون حسيبٍ أو رقيب، فيسيؤون استعمال السلطة، ويذفعهم الغرورُ إلى الكِبَر، ثم عمى البصائر، فيحصل نتيجةً لذلك الكثير من الظلم والفساد والإفساد، ثم الإمعان في البطش والإفساد، وتراقى بذلك الكثير من الدماء فيأتي قول يعقوب عليه السلام ليضع الأمور في نصابها، ويوضح الحقيقة الأبدية المطلقَّة: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ**.

فإذا به يقول للظالم: **مَا أَنْتَ إِلَّا شَخْصٌ أَخْطَأَ التَّقْدِيرَ**، وما تلك القوة التي بين يديك إلا تمكينٌ مؤقتٌ زائل، مهما طال فهو زائل، **وَيَبْقَى الْحُكْمُ لِلْحَقِّ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ**.

ثم تدور الدوائر على الظالم، فيرينا فيه الله تعالى قُوَّتَه، وتطويه الدنيا، فيتعظ بعض الخلق، ولا يتعظ البعض الآخر، فيسلك سلوكه فيلقى مصيره، وهكذا إلى أن تبلغ البشرية يوم الدين.

**اللطيفة الثالثة:** في الحكمة البالغة التي أطلقها يعقوب عليه السلام، لتكون هي أيضاً معلماً أساسياً على مر التاريخ، يرشدنا إلى كيفية التعامل مع قضاء الله تعالى الواقع على خلقه، إذ يقول: **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾**.

فهو يتبرأ من حوله وقُوَّتِه، ومن خيرة السنين الطويلة، ومن علمه الواسع الذي أعطاه الله تعالى، ومن جزصه ومحبته لأولاده، ومن حزنه على فقد أولاده، ومن مكانته في قومه وعشيرته، ومن سلطته الأبوية على أبنائه، يتبرأ من كل ذلك، ويوكل أمره إلى الله تعالى، معلماً أبناءه وجوب التمثل به، فيتوكلون على الله تعالى في حلهم وترحالهم، في فعلهم وقضدهم، ويغلمنا نحن أيضاً

وجوب التوكُّلِ الكاملِ المُطلَقِ على الله تعالى، فيصِلُنَا التعميمُ بقوله: ﴿وعليه فليتوكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومن هذه العبارة، أرى انطلاقَ أعظمِ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ علاجِ المشاكلِ النفسيةِ التي تُصيبُ الناسَ، وكمْ تكاثرتْ هذه المشاكلُ النفسيةُ في أيامنا الحاضرة، والغالبيةُ العُظمى منها تعودُ لعدمِ فهمِ وتطبيقِ الناسِ لمفهومِ التوكُّلِ على الله تعالى. فلو أحسنَ الناسُ التوكُّلَ، لزالَتْ عنهم هذه الأمراضُ، ولعاشوا بهناءً طمأنينةً حَمَى اللهُ تعالى، الذي لا يَنْسَى عِبَادَهُ، ولا تأخُذُهُ سنةٌ ولا نومٌ.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب اتقاء الحسد وأعين الناس، وخصوصاً في الأبناء، وتبعاً فيما أعطى الله تعالى من رزق. فليس لنا أن نتباهى بعرض ما وهبنا الله تعالى على أعين الناس، وخصوصاً الحاسدين منهم، لأن العين حق، والأذى منها حاصل.

٢ - للدلالة على وجوب التوكُّلِ على الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنيانا، وهذا أمر رباني إلينا، ساقه القرآن الكريم على لسان يعقوب عليه السلام، ليكون إحدى القواعد الأساسية التي توجه تحركنا في حياتنا، ولقد جاءت العبارة بالنص العام بقوله: أن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَنُّهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيٍّ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

تَتَابِعُ مَعَنَا هَذِهِ الْآيَةَ أَخِي الْمُؤْمِنَ، قِصَّةَ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي مَحَاوَلَتِهِمُ الثَّانِيَةَ لِلْحَصُولِ عَلَى الْمُؤْنِ وَالغِذَاءِ، وَقَدْ اسْتَطَاعُوا تَلْبِيَةَ مَطْلَبِ الْعَزِيزِ، بِإِحْضَارِ أَخْيَهُمِ الْأَصْغَرَ مَعَهُمْ، فَلْتَأَمَّلْ مَا تَحْمِلُهُ لَنَا هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ جَمِيلِ اللَّطَائِفِ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

#### فِي هَذَا الشُّطْرِ مِنَ الْآيَةِ لَطَائِفُ عِدَّة:

**اللطيفة الأولى:** فِي لِحْظِنَا لِهَذَا الْإِنْتِقَالِ السَّرِيعِ لِلْمَشْهَدِ، دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى شَرْحٍ وَتَفْصِيلٍ. إِذْ إِنَّ الْمَسْتَمَعَ اعْتَادَ مِنْذُ بَدَايَةِ السُّورَةِ، عَلَى الْمُشَارَكَةِ الذِّهْنِيَّةِ مَعَ السَّرْدِ، فِي تَكْوِينِ صُورِ الْمَشَاهِدِ الْمُتَعَاقِبَةِ، وَرَبْطِهَا فِيهَا بَيْنَهَا، وَمَلَأَ الْفُرَاتِ الزَّمْنِيَّةِ غَيْرِ الْمَذْكُورَةِ فِي سِيَاقِ السَّرْدِ.

فَلَقَدْ كَانُوا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، عَلَى بَعْدِ آلَافِ الْأَمْيَالِ فِي حَضْرَةِ أَبِيهِمْ، يَتَلَقَّوْنَ الْإِرْشَادَاتِ وَالْأَمْرَ. وَمَا بَيْنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَالْآيَةِ الْحَالِيَةِ، وَقْتُ وَجْهِدِ، وَانْتِقَالٌ وَتَخْطِيطٌ، وَتَوَافُقٌ وَتَنْفِيزٌ.

**اللطيفة الثانية:** فِي وَقُوفِنَا عِنْدَ الْحَالِ النَّفْسِيَّةِ لِلْإِخْوَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الْقِصَّةِ، وَهِيَ تَتَسِمُ بِالْهُدُوءِ، وَالانْصِياعِ وَالِاتِّزَامِ بِتَوْجِيهَاتِ أَبِيهِمْ، دُونَ مَا اجْتِهَادِ أَوْ مَنَاقَشَةِ.

فَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ رَأْيٍ وَاجْتِهَادِ، وَلَقَدْ أَعْمَلُوا رَأْيَهُمْ فِي السَّابِقِ فِيمَا يُخَالِفُ إِرَادَةَ أَبِيهِمْ، وَأَبْعَدُوا أَخَاهُمْ يُوسُفَ عَن فِكْرٍ وَتَضْمِيمِ.

أَمَّا هُنَا، فَتَلَحَّظُ هُدُوءَ التَّصَرُّفِ مِنْ هُدُوءِ الْآيَةِ، فِي سَرْدِهَا لَوَاقِعِ حَالِهِمْ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾.

**اللطفة الثالثة:** لغوية، في وقوفنا عند قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهي تُظهِرُ لَنَا فَرَادَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فِي الجَمْعِ بَيْنَ المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، وَذَلِكَ لِبَيَانِ عَدَمِ تَرْتِبِ الغَرَضِ المَقْصُودِ عَلَى التَّدْبِيرِ المَعْهُودِ، مَعَ كَوْنِهِ مَرْجُوءَ الوجودِ.

وتفسيره: أن يعقوب عليه السلام، أخذ كافة الاحتياطات اللازمة، للعمل على عودة أبنائه جميعاً. وحين عَمِلُوا بهذه الاحتياطات، لم تَخْصُلْ سَلامَةٌ العُودَةِ، عَلَى ما سَتَرَى فِي لاحِقِ الآياتِ.

**اللطفة الرابعة:** في تأملنا لاستباق الإعلام تلميحاً لا تصريحاً، في جمالية قصصية عالية المستوى، بأن شيئاً ما، سيُسَوَّبُ مُهَمَّةَ الأَبْنَاءِ، مِمَّا يَحْمِلُ المُتَّبِعَ لِسِياقِ القِصَّةِ، عَلَى تَحَسُّبِ حُصُولِ حَدِثٍ ما، يَضَعُ لَهُ فِي زاوِيَةِ ذَهْنِهِ مَكَاناً، يَدْفَعُهُ إِلَى تَرْقُبِ الأَحْدَاثِ، مِمَّا يُبَيِّنُهُ عَلَى حَالٍ مِنَ الانشداد.

**اللطفة الخامسة:** ما نَلَحَظُهُ مِنْ تَكْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَامَ كُلِّ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ. فَيَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

والله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. فلقد شاء الله تعالى أن يَحْصُلَ تَكَرَّارٌ لَفْظِيٍّ كَامِلٌ لِمَا قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَنَسْتُ أَرَى تَكْرِيماً أَعْلَى مِنْ هَذَا التَّكْرِيمِ.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ مِنَ الآيَةِ، لَطَائِفُ عِدَّةٍ:

**اللطفة الأولى:** في لَحْظِنَا لِهَذَا الاستثناء الذي لا يُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ

تعالى. ولقد أجازَهُ اللهُ تعالى، بل أثنى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾.

وفي هذا تعليمٍ لنا وإفهام: أنَّ التسليمَ بالقضاء لا يُغني عن الحِيطَةِ والأخذِ بالأسباب، وأنَّ وَعَيْنَا الكَامِلَ لِحَتْمِيَّةِ حُصُولِ مَا قَضَى اللهُ تعالى علينا، لا يَدْفَعُنَا إلى التواكُلِ والتخاذُلِ والركونِ إلى الأرض، وهذه حقيقةٌ غفَلَ عنها الكثيرُ من الناس، وظنُّوا أنَّ التسليمَ يَغني التَّراخيَّ عن العملِ.

**اللطفة الثانية:** في محاولةٍ وقوفنا عندَ بعضِ أوجهِ العِلْمِ التي لَحَظْنَاها في يعقوبَ عليه السلام، من خلالِ تأملنا لما سَلَفَ مِنَ الآياتِ.

فلقد أشارَ في أولِ السورةِ إلى احتمالِ ضياعِ يوسفَ عليه السلامُ منه، معَ أنَّ ظَاهِرَ الحالِ في تلكَ اللَّحظَاتِ، أنه في الحِفْظِ والصَّوْنِ، فكانَ أنْ حَصَلَ الفَقْدُ.

ثم إنه أشارَ في الآياتِ السابقةِ إلى احتمالِ فَقْدِ الابنِ الأصغرِ أيضاً، معَ عَدَمِ وجودِ دَلَائِلَ على ذلك، إذ إنَّ واقِعَ الحالِ يُشيرُ إلى صِدْقِ الأبناءِ، وظُرُوفِ نَقْصِ الغِذاءِ، تُساعدُ على تَقْوِيَةِ دَلَائِلِ الحِفْظِ.

ثم إنه شَدَّدَ على وجوبِ الحِرْصِ والوعِي والتَّقِيْظِ، ورَسَمَ الخُطَطَ لِلحِمْيَةِ والوِقَايَةِ، إلا أنه قالَ مُباشرةً بعدَ ذلك: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

**اللطفة الثالثة:** في وقوفنا عندَ قولِ الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ونَرَى فيها توجيهاً وإرشاداً، ينبغي لنا أنْ نَعْتَمِدَهُ قاعداً في حياتنا اليومية:

فهو تعليمٌ لنا بوجوبِ إبقاءِ فُسْحَةٍ في حَيِّزِ اليقينِ، الذي نَحْصُلُ عليه، مهما بَلَغَ بنا الاِفتِناعُ بِصَوَابِيئِهِ، لاحتمالِ ألا نكونَ قد أَحْطْنَا بِكاملِ الحقيقةِ، وأنَّ هناكَ إمكانيَّةَ وجودِ تفسيراتٍ أُخرى للأحداثِ ونكونَ حاضرينَ لِتَقْبُلِها فيما لو غَيَّرَتْ

هذه الأحداث من النتائج المتوقعة أو المرجوة وفي فهم هذه الحقيقة، تقليل الكثير من المشاكل والمشاحنات والتوتر الحاصل بين الناس، في تشابك مصالحهم فيما بينهم.

ومعلوم أن الشيطان اللعين، يلعب على أوتار هذه التغشية، وعدم وعي هذه الحقيقة، ويستغلها للإيقاع بين الناس، فحبذا لو أخذنا بتوجيه القرآن الكريم.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن موجبات الحذر والحيطه يجب أن تؤخذ مع تمام التوكل على الله تعالى، وفي اتخاذها تطبيق لأمر الله تعالى، وهو يتم حصول الأجر، وإن كانت لا تغني من الله من شيء، لأن قضاء الله تعالى واقع، لكن الأخذ بالأسباب واجب.

٢ - للدلالة على وجوب الطاعة للوالدين حتى وإن كان ظن الأبناء أن رأيهم أصوب من رأي والديهم، وذلك قربى إلى الله تعالى، إلا أن يحصل نقاش واقناع.

٣ - استعمال عبارة: حاجة في نفس يعقوب قضاها، للدلالة على أمر يريد فعله ولا يريد إعلام الآخرين به إلا تلميحاً، فالعبارة جميلة، وردها إلى أصلها في القرآن الكريم أجمل وأكد.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٤]

تنقلنا هذه الآية أخي المؤمن، إلى مشهد رائع من مشاهد قصة يوسف عليه السلام، نجد فيها أن يوسف عليه السلام، بدأ باستعادة أحبابه، وها هي ذي البداية مع وصول أخيه الأصغر، تمهيداً لاجتماع شمل العائلة بكاملها، على ما سترى في لاحق الآيات.

نبدأ بتأمل الآية الكريمة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾.

### في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

**اللطفية الأولى:** في ملاحظتنا لجمال الأسلوب القرآني، في التدرج الهادي في كلمات آياته، مع ما تنقله إلينا من أحداث، فنحن نلاحظ هذا التكرار المحبب لعبارة: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾: ففي الآية السابقة كان الافتتاح: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي الآية الحالية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾.

فإذا بنا نلاحظ تدرجاً في الوصول إلى الهدف: دخول عام إلى المدينة في الآية السابقة. ودخول خاص إلى مقام يوسف عليه السلام في هذه الآية.

**اللطفية الثانية:** في وقوفنا عند المعاني التي تحملها عبارة: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وهو تصوير عامر بالمشاعر والأحاسيس، يحمل معاني الضم والحنو والرفقة والرحمة، والمحبة العميقة الخالصة، وكأن الآية توضح لنا، في إيجاز مذهش، مدى عمق حب يوسف عليه السلام لأخيه الأصغر، إذ نفهم من كلمة: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ التقريب والحماية، ويتبادر إلى ذهننا صورة الطائر الذي يضم تحت جناحيه صغاره، حنواً وحماية، حباً ورعاية، ذوداً وكفاية.

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦٨]

**اللطفية الثالثة:** في تأملنا لكلمة ﴿أخاه﴾ في قوله: ﴿آوى إليه أخاه﴾. ونتساءل: أليس بقية الإخوة إخوته؟ ولماذا فهمنا مباشرة أن المعني هو الأخ الأصغر؟

الجواب هو: أن القرآن الكريم، يمتاز بخصوصية التخاطب المباشر، مع الحس الإيماني الداخلي، القابع في كل واحد منا، فهو يسمو في أغلب سورته وآياته عن ذكر أسماء غير الأنبياء، إلا فيما ندر، وهذه إحدى خصائص إعجازه، إلا أنه لا يتركنا أبداً في حيرة من أمرنا، ويُعطينا الإشارات اللطيفة في سياق تفاعلنا مع قصصه.

فبالعودة إلى الآية الثامنة في بدايات السورة، نسمع الإخوة يقولون: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾. وبذلك فلقد تم فضله منذ بداية السورة عنهم، وأصبح يُشار إليه على مدار السورة بهذه التسمية: أخو يوسف، فلا يقع بذلك لبس أو إبهام.

ثم تتابع الآية الكريمة: ﴿قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون﴾.

في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

**اللطفية الأولى:** في لحظنا لصيغة التوكيد المضاعف التي استعملها يوسف عليه السلام، في إفصاحه عن نفسه لأخيه، إذ قال: ﴿إني أنا أخوك﴾ وهذا التوكيد يتناسب مع خطوره الإعلام والتعريف الذي يخصل، لصعوبة تصديق ذلك، من قبل الأخ الأصغر.

وكأنه يقول: إني أؤكد لك وإعلمك بأنني أخوك.

**اللطفية الثانية:** في وقوفنا عند مراحل التحضير النفسي التي بدأها يوسف عليه السلام، منذ لحظة وصول الإخوة، ومعهم الأخ الأصغر، استعداداً لحظة

جديدة يَحْتَاجُ فيها لمساعدة أخيه، وذلك على أربع مراحل:

**المرحلة الأولى:** بالإيواء في قوله تعالى: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾.

**المرحلة الثانية:** بالتعريف إذ قال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾.

**المرحلة الثالثة:** بالضمُّ إلى ذاتِ الموقعِ والجهة. إذ قال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

**وستاتي المرحلة الرابعة:** بالمشاركة العمليّة في تنفيذ الخطة على ما

سنرى في لاحق الآيات.

ونَلْحَظُ في قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مواساةً وتذكيراً في آنٍ واحد:

فلقد أساء الإخوة في السابق إلى يوسف عليه السلام، ورأينا كيف أنهم ألقوه في الجُبِّ، وأبعدوه عن أبيه.

ولقد أسأؤوا تبعاً إلى أخيه الأصغر، حين قالوا: ﴿لِيُؤَسِّفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ

أَبِينَا مِنَّا﴾<sup>(١)</sup>.

ولقد تركت هذه الإساءة أبلغ الأثر في حياة كلٍّ منهما، وفي حياة أبيهم،

الذي عاش حزناً عميقاً على فراق يوسف عليه السلام.

فإذا بيوسف بعد هذا التذكير، يدعُو أخاه للصفح والعفو عن بقيّة الإخوة،

تعلّماً لنا بوجوب العفو عند المقدرة.

وجميلٌ منّا أن نَقِفَ عندَ الحالِ النَّفْسِيَّةِ للأخ الأصغر في هذه اللّحظات،

وهو يعيشُ كشفَ حقيقةٍ مذهلة، لم يكن يتصوّرُ أبداً حصولها:

فنحنُ منذُ بدايةِ القصة، نراه طائِعاً جداً، لما يُمْلِيهِ عليه أبوه مع أنه رجلٌ

راشدٌ يُمكنه أن يُدليَ برأيه.

(١) [سورة يوسف، الآية: ٨]

ثم إِنَّه رَحَلَ إِلَى مِصْرَ، وَقَدْ أَخَذُوا الْقَرَارَ نِيَابَةً عَنْهُ، وَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ رَأْيًا فِي كُلِّ مَا جَرَى مِنْ حِوَارٍ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَالْأَبْنَاءِ، تَدْلِيلًا عَلَى قُوَّةِ طَاعَتِهِ لِأَبِيهِ وَاحْتِرَامِهِ لَهُ.

ثم إِنَّه وَصَلَ إِلَى مِصْرَ بِرَفْقَةِ إِخْوَتِهِ، مَعَ مُلَاحَظَةٍ دَقِيقَةٍ وَهَامَّةٍ جَدًّا هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَزُورُ فِيهَا مِصْرَ، بَيْنَمَا هِيَ لَيْسَتْ الْأُولَى لِإِخْوَتِهِ، مِمَّا يُعْطِي شَعُورًا مُضَاعَفًا بِالْغُرْبَةِ وَالْعُزْلَةِ، وَكُلُّنَا يَخْتَبِرُ هَذَا الشَّعُورَ، حِينَ نَكُونُ بِرَفْقَةِ مَنْ سَبَقْنَا لَزِيَارَةَ مَكَانٍ مَجْهُولٍ لَدِينَا.

ثم إِنَّ عَزِيزَ مِصْرَ آوَاهُ إِلَيْهِ، وَفِي هَذَا تَصَاعُدُ الشَّعُورِ بِالْدَّهْشَةِ وَالِاسْتِغْرَابِ، مِمَّا يَذْفَعُ النَّفْسَ إِلَى التَّسَاوُلِ فِي لَحْظَاتٍ سَرِيعَةٍ: مَاذَا يُرِيدُ مِنِّي عَزِيزُ مِصْرَ، حَتَّى يَرْفَعَنِي إِلَى هَذَا الْمَقَامِ دُفْعَةً وَاحِدَةً؟

ثم إِنَّهُ عَرَفَهُ بِنَفْسِهِ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾، فَإِذَا بِالْقَلْبِ يَنْشَرِحُ بَعْدَ انْقِبَاضِ، وَتَتَحَوَّلُ الدَّهْشَةُ إِلَى فَرَحٍ وَإِينَاسٍ.

ثم بَعْدَ الْإِنْشِرَاحِ الْهَدُوءِ، وَالتَّذَاكُرِ مَعَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا عَانِيَاهُ مَعًا مِنْ قِسْوَةِ الْإِخْوَةِ عَلَيْهِمَا.

ثم الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ وَالسَّمَّاحُ، بِقَوْلِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم مُتَابَعَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِخْبَارِهِ عَمَّا اعْتَزَمَهُ مِنْ خُطَةِ سَتْرِي تَفَاصِيلُهَا فِي لَاحِقِ الْآيَاتِ.

ثم الْمَوَافَقَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ يَوْسُفَ خُطَّتِهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا اتِّهَامٌ ظَاهِرٌ لَهُ، بِأَخْذِ مَا لَيْسَ لَهُ.

قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْتَمِلُ هَذَا التَّقَلُّبَ السَّرِيعَ فِي الْمَشَاعِرِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ، وَتِلْكَ الْقُلُوبُ يُقَلِّبُهَا اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ يَشَاءُ.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

- ١ - للدلالة على وجوب الصّبح عند المقدرة، حتى وإن كان الظلم أو القسوة متمادية مع الزمن، وغالباً ما يكون في هذا الصّبح خير عميم يصل إلى من ظلم فتشرق نفسه من آثار العفو، وتصفو وتعود إلى فطرتها وخيريتها.
- ٢ - للدلالة على أن النفس البشرية لا تثبت على حال واحدة، فهي متقلبة متبدلة، تتفاعل مع محيطها، فتنبض وتنبسط، وتبتهج وتحزن وتتأثر بالتوجيه الخارجي.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٥]

تنتقل بنا هذه الآية أخي المؤمن، إلى فصلٍ جديدٍ من فصولِ قِصَّةِ يوسف عليه السلام، وقد بدأ معها تنفيذَ خُطِّته الجديدة، بموافقةٍ ومُشاركةٍ أخيه الأصغر، فلنتأملُ معاً هذه الآيةَ الزَّاخِرةَ بالمعاني والمواقف، ولنتذوَّق جمالَ القرآنِ الكريم، في سَرْدِ القِصَصِ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ﴾.

في هذا الشَّطْرِ مِنَ الْآيَةِ، لطائفُ عدة:

اللطفية الأولى: في وقوفنا عندَ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾، ولقد سَمِعْنَاهُ يقولُ عندَ مفْصِلِ أساسِي سابقٍ مِنَ القِصَّةِ؛ في الآيةِ التاسعةِ والخمسين: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ حينَ طالِبَهُم بإحضارِ الأخِ الأصغرِ معهم.

ونرى في هذا التكرار لبَدْءِ المشهد، جماليةً قصصيةً نادرة، تُهيئنا للدخول نفسياً في أحداثِ المشهدِ اللاحق، مع كُلِّ ما يَحْمِلُهُ المشهدُ مِنْ عَقْدٍ وتأزُّمٍ، وشوقٍ إلى رُؤيةِ الحَلِّ.

**اللطيفة الثانية:** في ملاحظتنا لدقّة تصرُّفِ يوسف عليه السلام، مع حركة الأحداث: فنحن نُلحظُ أنّ الله تعالى يقول: أن يوسف عليه السلام جعلَ السِّقَايةَ في رَحْلِ أخيه. أي بنفسه: لقد قامَ بوضعِ وعاءِ الكيلِ داخلَ رَحْلِ أخيه، ولم يُكَلِّفْ أحداً آخَرَ بوضعه فيه، في حين أننا نقرأُ في الآيةِ الثانيةِ والستينِ مِنَ السورة، وقد مرّت بنا: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، هناك أمرُ فتيانه بالتنفيذ، أما هنا، فنظراً لأهميةِ هذه الخُطوةِ، قامَ بها بِنَفْسِهِ لضمانِ نجاحِ الخُطّةِ، وهذا معلّمٌ آخَرٌ مِنْ مَعَالِمِ شَخْصِيَّةِ يوسف عليه السلام: الإِتْقَانُ في العمل..

**اللطيفة الثالثة:** في وقوفنا عندَ محورِ الحَدِيثِ في هذا المَشْهَدِ. عنيتُ به السِّقَايةَ. ولقد أَوْضَحَ لَنَا السَّادَةُ المَفْسَّرُونَ أنه عبارةٌ عَن وَعَاءٍ أو إِنَاءٍ خَاصٍ بِالمَلِكِ. سَتَسْمِيهِ الآيَاتُ اللاحقة: صُوعَ المَلِكِ، يَسْتَعْمِلُهُ يوسف عليه السلامُ في كَيْلِ المُوْنِ، وهو نَفِيسٌ بَدَاهَةٌ، ولقد اختارَهُ يوسف عليه السلامُ، لأنه يحتاجُ إلى شيءٍ يَتَمَتَّعُ بالمواصِفَاتِ التالية:

أن يكونَ غالي الثمن، يَرِغَبُ الناسُ باقتنائه.

وأن يكونَ صغيرَ الحجمِ يسهلُ إخفاؤه.

وأن يكونَ قابلاً للوصولِ إليه.

وأن يكونَ مِمَّا يُمكنُ استعماله أو بيعه لقيمتِهِ أو لما فيه مِنْ موادِّ قِيَمَةٍ.

فاجتَمَعَتْ كُلُّ هذه المواصِفَاتِ في صُوعِ المَلِكِ، فاخْتَارَهُ يوسف عليه السلامُ أداةً تنفيذِ الخُطّةِ.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ مَوْزَنَ أَيْتُهَا الْعَيْرِ لَكُمْ لِسَارِقُونَ﴾.

في هذا الشطر من الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في تأملنا لتوقيت يوسف عليه السلام، لبدء التحرك لتأزيم المشهد، مع ما يتضمّن ذلك من إفصاح عن حُنْكَةٍ وحُسْنِ تصرّف:

فلقد جهّزهم بجهازهم، ثم وضع السقاية خفية عنهم، في رخل أخيه الأصغر، مع علم الأخ الأصغر بذلك.

ثم ودّعهم وتركهم يتحرّكون، بحيث صاروا في حكم المسافرين.

أي ثبت عليهم حصول اليقين بالمغادرة، وبالتالي ثبت تضمّن رحالهم لكل ما أخذوا معهم، لحصول الانفصال المادي بالانتقال.

ولقد صبر يوسف عليه السلام، وانتظر بدء تحركهم حتى يُرْسِلَ الداعي بالإعلان عن حصول السرقة.

ولو أنه عاجلهم بالاتهام وهم لا يزالون في أماكنهم، لكان أمكن لهم دفع الجرم عن أنفسهم بظن حصول الخطأ في وقوعه بين أوعية الرّخل.

أما أنّ الرّحال قد حُرِمَتْ وانطلقت العير، فهذا دليل ثابت على سبق الإصرار والتعمّد.

**اللطيفة الثانية:** في ملاحظتنا لعلو ذكاء يوسف عليه السلام، وحسن إدارته لخطته. إذ نقرأ: ﴿وَأَدْنَىٰ مَوْزَنَ﴾ فلقد أوكل أمر اكتشاف مكان وجود السقاية، إلى بعض أفراد حاشيته، بخلاف ما فعل حين وضع السقاية بنفسه في رخل أخيه. وسينهج هذا المنهج في بقية أحداث هذا المشهد، تعميقاً لثبوت حال المخالفة في حق الإخوة.

**اللطيفة الثالثة:** أيضاً عند قول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مُؤَذِّنًا﴾، وذلك لجعل الحَدِيث معلوماً مِنْ جَمِيعِ الحَاضِرِينَ، مما يُوقِعُ الإخوةَ في موقفٍ عليّ لا يُحسدُونَ عليه، وَيُضعِفُ مَوقِفَهُم إلى أذنى حَدٍّ، ونحن نعرفُ الفَرْقَ بينَ كَشْفِ الفِعْلِ السَّيِّئِ في مَوقِفِ فَرْدِيٍّ، وكَشْفِهِ على مَسْمَعٍ ومرأىٍ مِنَ الناسِ، وَيَحْضُرُنِي هنا حالُ الناسِ يَوْمَ الحَشْرِ، يَوْمَ العَرَضِ العَظِيمِ، حينَ تَقِفُ البَشَرِيَّةُ كَافَّةً، فَتَسْمَعُ وتَرى ذُنُوبَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْها، يَعتَرِفُ بِها بِنَفْسِهِ على مَسْمَعٍ ومرأىٍ مِنْهم جَمِيعاً، فأَيُّ مَوقِفٍ أَضَعَبُ مِنْ هذا المَوقِفِ؟

**اللطيفة الرابعة:** في الجمالية اللغوية في قول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مُؤَذِّنًا﴾ ولم يقل: ونادى مُنادٍ، إذ إنَّ الوَقَعَ اللُّغَوِيَّ في الأذِنِ أَجْمَلٌ. والصورة التي تَحْمِلُها أَزْقَى وَأَضْفَى.

**اللطيفة الخامسة:** في وقوفنا عند قول المؤذّن: ﴿أَيْتُهَا العِيرُ﴾.

وفي هذا تَعْمِيمٌ لا تَخْصِصَ، وهذا التعميمُ يتوافقُ معَ أهدافِ خُطَةِ يوسفَ عليه السلام، من ناحيتين اثنتين:

فَمِنْ نَاحِيَةِ أَوَّلَى، يَدْفَعُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الإخوةِ إلى الشُّعُورِ التَّضامِنِيِّ مَعَ جَمِيعِ القَافِلَةِ، فيما سَيرِدُ إليها مِنْ إعلامٍ أو اتِّهامٍ.

ومن نَاحِيَةِ ثَانِيَةِ، فيه التعميةُ والتَمويه، وإبعادُ الشُّبُهَةِ عَن حُصولِ التوافقِ بَيْنَ يوسفَ عليه السلام، وأخيه الأصغر.

**اللطيفة السادسة:** في هذا الاتِّهامِ المباشِرِ، الذي ألقاهُ المؤذّنُ على كاملِ القافلة، بقوله صَراحةً: ﴿إِنكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

فهو لم يَطْلُبْ مِنْهُم التمهّل أو التوقّف.

وهو لم يَطْرَحْ عليهم سؤالاً أو استفساراً.

وهو لم يَقُلْ لهم: إن خطأ قد يكونُ وَقَعَ عندَ حَزْمِ الأمتعة. بل واجهَهُمْ مباشرةً باتهامٍ خطير، وَقَعَ عليهم وَقَعاً صاعقاً. إنما أرادَ يوسفُ عليه السلام، لِيُحَدِّثَ فيهِمْ ما يُسَمَّى بصدمةِ الرفض، إذ تتصاعدُ لديهم فجأةً، وبصورةٍ قويةٍ وكُلِّيةٍ، حالةُ الإنكارِ الكاملِ للثَّهْمَةِ، ممَّا سَيَدْفَعُهُمْ لاحقاً لقبولِ الحلولِ الجَذْرِيَّةِ القاسيةِ، فيما لو صَحَّتِ التهمةُ، في تحدٍّ يَنْبُغُ من قوَّةِ يَقِينِهِم بالبراءة.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن إحكام خطة ما بلحظ كافة تفاصيلها، تؤدي نتائجها المرجوة، شرط التدرج والتمهل في تنفيذها، وعدم التسرع أو تجاوز المراحل المعدة، والمقصود بهذا التوجيه، هي الخطط الخيرة التي تهدف إلى إصلاح ذات البين، أو فض النزاعات، أو تقريب وجهات النظر، والمؤسف أن أهل الشر والإفساد يقومون هم أيضاً بحك الخطة والمكائد للإيقاع بين الناس، ويمكرون ويمكر الله، والحصيلة النهائية لعملهم، البوار والخسران المبين.

٢ - للدلالة على أن عنصر المفاجأة يستوجب الجرأة والسرعة في التنفيذ دون تردد أو إبطاء، فلقد تسارعت الأحداث فجأة في حق الأخوة مما أوقعهم في إرباك شديد، وهذا المبدأ إن حسن أعماله، يعطي أفضل الثمار، سواء في الحرب أو في السلم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

نُتَابِعُ مَعَا أَخِي الْمُؤْمِنَ، تَأْمَلُ الْحَوَارِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ إِخْوَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَقَدْ سَرَّهُمْ أَنَّهُمْ تَمَكَّنُوا أَحْيَرًا مِّنَ التَّجْهُّزِ بِالْمُؤْنِ وَالغِذَاءِ، وَقَدْ انْطَلَقُوا فِي سَيْرِهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَبَيْنَ بَعْضِ حَاشِيَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَقَدْ عَلِمْنَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أَنَّهُمْ اسْتَوْقَفُوهُمْ وَأَتَّهُمُوهُمْ بِالسَّرِقَةِ، وَكَانَ اتِّهَامًا صَرِيحًا عَلَنِيًّا مُبَاشِرًا، الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَتَوَقَّعْهُ الْإِخْوَةُ إِطْلَاقًا، فَقَدْ كَانُوا مُنْهَمِكِينَ بِسُرْعَةِ الْعُودَةِ إِلَى آبِيهِمْ فِي سَعَادَةٍ، لِتَحَقُّقِ الْهَدَفِ الْمَزْدُوجِ: تَحْصِيلِ الطَّعَامِ، وَالْحِفَاطِ عَلَى الْأَخِ الْأَصْغَرِ كَمَا وَعَدُوا آبَاهُمْ، فَإِذَا بِهِذَا النَّدَاءِ الْبَعِيدِ يَقْلِبُ الْأُمُورَ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ. فَلتتأمل الآيتين:

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

في هذه الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في وقوفنا عند الصياغة الأدبية للآية. ونحن نعرف أن عبارة: ﴿واقبلوا عليهم﴾ هي جملة اعتراضية، وكان يمكن أن ترد على ما اعتدنا على سماعه وقوله من بسط العبارات: فأقبلوا عليهم وقالوا ماذا تفقدون.

إلا أننا، وبالعودة إلى سياق الحوار الذي يبدأ مع هذه الآية، ويمتد إلى أربع آيات متواليات، يكون افتتاح الآيات الثلاث التالية حكماً بعبارة: ﴿قالوا﴾ فأنسجماً مع تناسق التعبير القرآني، جاء افتتاح الآية الأولى بعبارة: ﴿قالوا﴾، مع إعطاء الآية قوة جمالية أعلى: ﴿قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾

**اللطيفة الثانية:** في وقوفنا عند مغزى إيراد الله تعالى لعبارة: ﴿واقبلوا عليهم﴾، والتي كما ذكرنا، جاءت اعتراضية في معرض السرد، وهي تشير إلى أن القافلة، كانت قد أدبرت عن مضر، فإذا بهم لما سمعوا نداء المؤذن، عادوا أدراجهم.

لقد حملت الآية الكريمة إشارتين اثنتين، على صدق الإخوة في تصرفهم حيال هذه المسألة، التي أتت إليهم، ولم يحسبوا لها حساباً: أن تقع عليهم تهمة السرقة..

الإشارة الأولى، حين عادوا أدرأجهم.

والإشارة الثانية، حين قالوا صادقين: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

ونحن إذ نقرأ هذه الآيات الكريمة، نغرف حقيقة المسألة، ونعرف أن الإخوة لا يد لهم إطلاقاً في السرقة، إلا أننا نتأمل موقفهم من الاتهام الواقع عليهم. وهذه الظروف تتكرر كثيراً في الحياة الدنيا بين الناس. ويصوّر لنا هذا المشهد من السورة، حال تفاعل البشر مع الأحداث. وما إخوة يوسف إلا نموذج للنفس البشرية، تتكرر على مر الأيام بألوان وأساليب مختلفة.

**اللطيفة الثالثة:** في لحظنا للأدب الذي تعامل به الإخوة مع الاتهام الموجه إليهم. فلقد قيل لهم في الآية السابقة: ﴿أَيْتَهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وقلنا إنه اتهام خطير لا يقبله الإنسان بسهولة.

فكان جوابهم على أعلى درجة من الأدب والانضباط، إذ قالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

وتلك آثار التربية الصالحة التي ربّاهم عليها يعقوب عليه السلام.

ثم يقول الله تعالى على لسان أفراد الحاشية: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.

في هذه الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في لحظنا لهدوء الوتيرة، في أسلوب الكلام المستعمل من قبل الحاشية، وجاء هذا الهدوء استجابة جيدة ولطيفة، لتساؤل الإخوة الهادئ

والرّصين، وهذا سرٌّ مِنْ أسرارِ التّخاطبِ والحوارِ، حَبْدًا لو استخَلَصْنَا منه العِبْرَ: فَإِنَّ رَفَعَ وتيرةَ الحوارِ بَيْنَ الطرفين، يُؤدِّي إلى عَشَى الأبصارِ، وَعَمَى البصائرِ، وغالبًا ما تكونُ فُرصةَ الشيطانِ، للإيقاعِ بَيْنَ المُتَحاورينِ، في الشَّحْنِ التّصاعُدِيّ لوتيرةِ الحوارِ.

**اللطيفة الثانية:** في وقوفنا عند التدرُّجِ المُستخسِنِ الذي اعتمَدَهُ كبيرُ المتحدثينِ، في إقناعِ القافلةِ بِرَدِّ المفقودِ، ونراهُ في هذه الآيةِ على ثلاثِ مراحل:

المرحلةُ الأولى، بالإعلامِ عَن طبيعةِ الشيءِ المفقودِ.

المرحلةُ الثانية، بالوعدِ بجائزةٍ لمن يُحضِرُ الشيءَ المفقودِ.

المرحلةُ الثالثة، بإعطاءِ الضمانةِ الشخصيةِ، بتأمينِ الجائزةِ.

وهذا هو أسلوبُ الترغيبِ الذي يُقنِعُ الحائِزَ للمفقودِ أن يعيده، أو يُقنِعُ مَنْ يَعْرِفُ مكانَ وجودِهِ للدلالةِ عليه.

**اللطيفة الثالثة:** في تأمُّلنا لنوعِ الجائزةِ: ﴿حِمْلٌ بَعِيرٌ﴾، ولا عَجَبَ، فهذا أَثْمَنُ ما يَطْلُبُهُ النَّاسُ في هذا الوقتِ مِنَ القَحْطِ والجَفَافِ، وهي جائزةٌ مغريةٌ جداً، لا يقدِرُ على الصمودِ أمامها الحائِزُ.

ونفهمُ مِنْ هذا، أَنَّ قيمةَ الصُّواعِ عاليةٌ جداً. ولعلَّهُ كَانَ مُرْصِعاً بالجواهرِ، أو أنه مضمونٌ مِنَ المعادنِ الثمينةِ.

ثم تَنْتَهِي الآيةُ بصيغةِ المفردِ بقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وفي هذا انتقالٌ مِنَ العامِّ إلى الخاصِّ، لأنَّ التعهُّدَ والضمانَ لا يُمكنُ أن يصدُرَ عَن مجموعةٍ، بل يَجِبُ أن يبلُغَ الإقناعَ بالتنفيذِ مداه، فتعهُّدٌ كبيرٌ الحاشيةِ بالتنفيذِ على مسؤوليته.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

- ١ - للدلالة على مشروعية الحوافز ذات القيمة لحمل الناس على بذل مجهود أكبر لإتقان العمل وفي هذا مخاطبة لعوامل اليقظة والتنبيه في الإذهان، وهذا صنو التنافس المشروع الذي يؤدي إلى تحسين الإنتاج ومضاعفة الجودة.
- ٢ - للدلالة على أن ضمانة الإيفاء حال الوعد واجبة، وهنا أيضاً تظهر أهمية طمأنة الحال النفسية للموعد لكي يكون أداؤه على أحسن وجه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾  
قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ  
جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٧]

تتابع معاً أخي المؤمن، في تأملنا اليوم لهذه الآيات، بقية الحوار الذي جرى بين حاشية يوسف عليه السلام، وقد أزلهم لاسترداد صواع الملك، وبين الإخوة في دهشتهم ونفيهم للثمة الموجهة إليهم.

وكنا قد لحظنا أن الحوار بدأ بالترغيب بإعادة المفقود بالحسنى، دون تفتيش، مع وعدٍ بالمكافأة، فلما كان جواب الإخوة الإنكار، تغيرت اللهجة على ما سنرى في الآيات، موضوع تأملنا.

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا

سَارِقِينَ﴾.

### في هذه الآية لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في وقوفنا عند ابتداء كلام الإخوة في ردِّهم على الاتهام، بالقَسَمِ بالله تعالى، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾.

يقول النُحْوِيُّونَ: لا يُقَسَمُ بالتاءِ إلا في الله خاصة؛ وفي القَسَمِ بها مَعْنَى التعجُّبِ.

إنهم يتعجبون ويُقَسِمُونَ بالله تعالى.

ولقد عَلِمْنَا مِنْ سالفِ الآياتِ، أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ في ذلك الزمانِ، وإن كانوا على الشِرْكَ، فَهَمْ يَعْرِفُونَ الله تعالى، ونَذَكُرُ قولَ النُّسُوةِ في المدينةِ أولَ السورةِ، حينَ رَأَى يوسفَ عليه السلامِ، في بيتِ امرأةِ العزيزِ، في الآيةِ الحاديةِ والثلاثينِ: ﴿قُلْنَ حَاشَ اللهُ ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

ولذلك، فإنَّ قَسَمَهُمْ بالله تعالى، مفهومٌ لدى الحاشيةِ، والهدفُ منه، إثباتُ صِفَةِ الصِّدْقِ على قَوْلِهِمْ، وهو في الوقتِ عينه، جوابٌ بالنفيِ والإنكارِ، مما يُفْهَمُ فيه رفضُ الإخوةِ لعرضِ الحاشيةِ بالحصولِ على الجائزةِ، تأكيداً على بَرَاءَتِهِمْ.

**اللطيفة الثانية:** في ملاحظتنا لدقة العبارة القرآنية، في قولِ الإخوةِ: ﴿لقد عَلِمْتُمْ﴾ فَهَمْ بِذلك يُشْهَدُونَ الحاشيةَ على حصولِ سَبْقِ العِلْمِ لديهم، إرتكازاً إلى ما استجمعَ لديهم من تصرفِ الإخوةِ، خلالَ إقامتهم في مِصْرَ، ولا تتكوَّنُ المعلومةُ إلا بتضافرِ عناصرِ التثبيتِ لها، مِنْ مواقفٍ مُتَمَيِّزةٍ، وتكرارِ التصرفِ الحسنِ، وحُسنِ التعاملِ والأدبِ والعفةِ والأمانةِ، حتى اشتَهَرُوا بها، فحَقَّ لهم أن يقولوا: ﴿لقد عَلِمْتُمْ﴾.

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣١]

**اللطيفة الثالثة:** في العبارة التي ذكّرها الإخوة في دفاعهم عن أنفسهم إذ قالوا ابتداءً: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾.

والإفساد وعاءٌ كبير، يَضُمُّ ما لا يَكَادُ يُخَصِّي مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، ابتداءً مِنْ أذِيَةِ النَّاسِ بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ، وَالتَّعَدِّيِّ عَلَى الْحُرْمَاتِ، وَصُولاً إِلَى السَّلْبِ وَالتَّهْبِ، وَالسَّرْقَةِ وَالتَّخْرِيْبِ، ثُمَّ الْإِسَاءَةِ إِلَى الْعُقُولِ وَالْأَذْهَانِ، وَبِثِ الْأَفْكَارِ الْهَدَامَةِ، وَالْإِرْهَابِ الْفِكْرِيِّ، وَتَرْوِيعِ النَّاسِ، وَسَلْبِ الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَنَشْرِ سَبَابِ الرَّذِيلَةِ، وَهَدْمِ الْمَجْتَمَعَاتِ، وَالْإِسَاءَةِ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَطَبِيعَةٍ، وَمَا لَمْ نَذْكَرْ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ.

لقد ذكر الإخوة أولاً، فعلاً سيئاً واسعاً جداً، واستهجنوه ورَفَضُوهُ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَسْأَلَةِ جِزْءٍ مِنْهُ، فَتَفَوُّا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَهْمَةً السَّرِقَةِ.

**اللطيفة الرابعة:** في لحظنا لتوقيت نفي السرقة عن أنفسهم. لقد كانت الكلمة الأولى التي ذكّرها المؤذّن في بدء الحوار: ﴿أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فما أجابوه مباشرة، بل استفهموا عن التهمة، وتركوا المؤذّن يشرح لهم تفاصيل الحديث، وتركوه يعرض عرضه، ثم أجابوا بأنهم مُسَالِمُونَ، لا يَبْتَغُونَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِلَى أَنْ أَجَابُوهُ فِي النِّهَايَةِ: وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ.

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟﴾

في هذه الآية لطيفتان اثنتان:

**الأولى:** أننا نقف مُنْدهِشِينَ أَمَامَ سُؤَالِ الْحَاشِيَةِ: فَهَمَّ يَتَحَدَّثُونَ نِيَابَةً عَنْ عَزِيزِ مِصْرٍ، وَالْمَوْقِفُ مَتَوَتِّرٌ جَدًّا: صَوَاعُ الْمَلِكِ مَفْقُودٌ، وَإِخْوَةٌ يَوْسُفَ مُتَهَمُونَ، وَرِجَالُ الْبَحْثِ فِي مَوْقِعِ قُوَّةٍ، قُوَّةِ السُّلْطَةِ الْمُسْتَمْدَّةِ مِنَ الْحَاكِمِ، وَيُمْكِنُهُمْ إِمْلَاءُ شُرُوطِهِمْ فِي الْعِقَابِ، وَيُمْكِنُهُمُ الْإِحْتِكَامُ إِلَى الْقَوَاعِدِ وَالْقَوَانِينِ الْمَرْعِيَةِ الْإِجْرَاءِ لَدَيْهِمْ، وَهَذَا مَنْطِقِيٌّ فِي عُرْفِ الْعَدَالَةِ وَالْقَانُونِ.

فإذا بهم يسألون المُتَّهَمِينَ عن نوع العِقَابِ الذي سَيُعَاقَبُونَ بِهِ فيما لو ثَبَّتَتْ عليهمُ التُّهْمَةُ، يُريدُونَ بذلك مَعْرِفَةَ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ.

وتزولُ دَهْشَتُنَا حِينَ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ بِتَخْطِيطِ وَتَوْجِيهِ مِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ السَّارِقَ فِي شَرِّ قَوْمِهِ يَعَاقَبُ بِالِاسْتِرْقَاقِ، فَيَصْبِحُ عَبْدًا مَمْلُوكًا عِنْدَ مَنْ سَرَقَهُ، وَمَا طَرَحَ السُّؤَالَ بِهَذَا الشَّكْلِ إِلَّا لِحَمْلِ الْإِخْوَةِ عَلَى لَفْظِ هَذَا الْحُكْمِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَتِلْكَ قِمَّةُ الذِّكَاةِ فِي تَوْجِيهِ الْمَحَاوِرِ فِي الْإِتْجَاهِ الَّذِي تَبَغَّيْهِ، دُونَ أَنْ يُدْرِكَ إِلَى أَيِّ مَدَى سَتُوصِلُهُ.

**اللطفية الثانية:** فِي التَّحَوُّلِ الْمَفَاجِئِ فِي الْحَوَارِ مِنْ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهِيبِ، فِي انْسِيَابِ لُغَوِيٍّ جَمِيلٍ؛ وَذَلِكَ بِبَدْءِ ذِكْرِ الْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ، وَحَضْرِ التَّفَاوُضِ فِي نَوْعِ الْعِقَابِ، حَالَ ثُبُوتِ التُّهْمَةِ. وَلَمْ تَشْعُرْ بِجِدَّةِ الْإِنْتِقَالِ، بِسَبَبِ انْشِغَالِنَا بِوَأَقِعِ الْاسْتِفْهَامِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْآيَةُ.

ثم يقولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

#### فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَطَائِفُ عَدَّة:

**اللطفية الأولى:** فِي مَلَاخِظَتِنَا لِأَسْلُوبِ الْإِجَابَةِ وَدِقَّةِ اللَّغْوِيَّةِ، حِينَ نَسْمَعُ الْإِخْوَةَ يَقُولُونَ: ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ تَرْفَعًا عَنِ قَوْلِ: مَنْ سَرَقَ السِّقَايَةَ، فَهَمَّ، حَتَّى فِي الْإِحْتِمَالِ الْجَدَلِيِّ يَرْفُضُونَ نِسْبَةَ السَّرِقَةِ إِلَى أَحَدِهِمْ إِطْلَاقًا.

**اللطفية الثانية:** فِي وَضُوحِ وَصْرَاحَةِ الْإِخْوَةِ فِي إِجَابَتِهِمْ عَنِ نَوْعِ الْعِقَابِ الْوَاقِعِ فِي شَرِيعَتِهِمْ عَلَى السَّارِقِ، بَلْ أَكْدُوا عَلَى وَجُوبِ إِيقَاعِ الْعِقَابِ بِالسَّارِقِ بِتَكَرَّرِهِمْ قَوْلَ: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.

ذَلِكَ لِإِقْيَانِهِمُ الْقَطْعِيَّ أَنَّ لَا أَحَدًا مِنْهُمْ سَرَقَ الصُّوَاعَ. وَلَوْ شَكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَوْ بِإِحْتِمَالٍ ضئِيلٍ، أَنَّ أَحَدَهُمْ أَخَذَ الصُّوَاعَ. لَمَا كَانَ الْجَوَابُ بِهَذَا الْجَزْمِ

الصريح؛ فهم متأكدون من براءتهم. ولم يجدوا حرجاً في ذكر نوع الجزاء المُعتمَد لديهم في شريعتهم.

**اللطيفة الثالثة:** في لَحْظِنَا لهذا التدرج التصاعدي في جواب الإخوة الواثق والصريح، الخالي من أي خوف أو تردّد.

فلقد ذكروا أولاً: الجزاء - وهو الاسترقاق.

ثم أكدوه بالتكرار.

ثم ارتقوا في تثبيت تأكيده بقولهم: ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ولنا أن نتأمل هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام: فهو موقف مُدهش غير مُعتاد:

فسائق الاتهام، يعرف أن أداة الجرم موجودة في حوزة المتهم، ويدعي عدم المعرفة، ويدعي البحث عنها.

وهو يعرف أن المتهم لا يعرف بوجود أداة الجرم في حوزته.

والمتهم، لا يعرف أن سائق الاتهام يعرف أنه بريء.

والمتهم واثق من نفسه ومن براءته، لأنه لم يرتكب جرم السرقة، وهو يتحدث بعزة وأنفة.

وسائر الاتهام، يعرف تماماً، أن التهمة ستثبت على المتهم، نظراً لوجود أداة الجرم في حوزته.

والمتهم واثق تماماً أن الحصيلة ستنتهي بتبرئته، وهو ينتظر حصول التفتيش لإثبات براءته.

ذاك موقف انقلبت فيه الأدوار، وهو غاص، غني جداً بالمشاعر التي تعتمل في صدر كل واحد منهم، وستتغير هذه المشاعر مع كل مرحلة من مراحل هذا المشهد، على ما سترى في لاحق الآيات.

### مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

- ١ - للدلالة على وجوب عدم التسرع بالجزم القاطع لأي أمر كان لإحتمال حصول عكسه، وإن كان الإحتمال ضئيلاً جداً يكاد يكون معدوماً. ذلك أن الإنسان لا يمكنه الإدعاء بالإحاطة الكاملة بكمال العلم، والحيلة تقضي بترك هامش تحرك بسيط لإحتمال انقلاب الأمور على عكس ما هي سائرة عليه.
- ٢ - للدلالة على أن الأمور تسير أحياناً في الظاهر بعكس حقيقتها في الباطن، كمثل حال المحقق والمتهمين في الآيات السالفة: فالمحقق يعرف أن المتهم بريء، والمتهم واثق من براءته وهو لا يدري أن التهمة تلبسه لبساً، وإذ يخدم هذا الحدث فعلاً خيراً. فكم وكم من الأحداث المشابهة تقع لتخدم تخطيط الظلم والعدوان.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٨]

نصل مع هذه الآية أخي المؤمن، إلى مرحلة دقيقة جداً، من هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام، وقد وصل التأزم إلى أقصاه، بإجراء الكشف الحسي المادي على أحمال القافلة، بحثاً عن صواع الملك المفقود. نبدأ بتأمل الآية الكريمة.

يقول الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ

أَخِيهِ﴾.

### في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ، لطائفُ عدة:

**اللطيفة الأولى:** في ملاحظتنا أنَّ يوسفَ عليه السلام هو الذي قامَ بأعمالِ التفتيشِ بنفسِه، وهذا تدليلٌ على انتقالِ المشهدِ من موقعِ وجودِ القافلة، حيث أوقفتها الحاشية، وعادتَ بها إلى قُصرِ العزيز.

وكانَ لزاماً في نَظرِ يوسفَ عليه السلام، أن يكونَ هو مَنْ يفتَحُ الأوعية، حتى لا يحصلَ خللٌ في تنفيذِ الخُطة، ولاستدراكِ رَدّةِ فِعْلِ الإخوة، حين يَظهَرُ الصَّواعُ في رِجْلِ الأَخ الأصغر.

وكُنّا قد عَلِمنا، أنَّ يوسفَ عليه السلام، في إدارتهِ الحكيمَةِ لمراحلِ خُطتهِ، يُوكَلُ تنفيذَ بعضِ أجزاءها إلى الحاشية، ويقومُ هو بنفسِه بتنفيذِ بعضِ المراحلِ الدقيقة، ضَمَاناً لنجاحِ التنفيذِ، ونحن نَتعلَّمُ مِنْ يوسفَ عليه السلام، كيفيةِ التعاملِ معَ الأحداثِ، فلا نَركَنُ إلى مَنْ لا اختصاصَ ولا خِبرةَ له في تنفيذِ أعمالٍ تَتطلَّبُ الخِبرةَ والاختصاصَ.

**اللطيفة الثانية:** في وقوفنا عندَ قولِ الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، وفي هذا إيضاحٌ لِمَعْلَمٍ جديدٍ مِنْ معالمِ شخصيَةِ يوسفَ عليه السلام، لم نَطلِعْ عليه قَبلاً وهو: دَفْعُ الشُّبْهَةِ بالتعمية:

وهذا دليلٌ على ذكاءٍ شديدٍ حباهُ الله تعالى به.

فهو يعرفُ تماماً أينَ الصَّواعُ، وقد وَضَعَهُ بيدهِ في رِجْلِ أخيه الصغيرِ.

وهو أكثرُ شوقاً مِنْ أيِّ شخصٍ حَضَرَ المجلسَ، لاستخراجِ الصَّواعِ مِنْ مكانِه.

إلا أنه أظهرَ انضباطاً وضبطاً للنفسِ، وقامَ بمجهودِ بَدَنِيٍّ هامٍ، بالبحثِ والتفتيشِ في أمتعةٍ يَعرِفُ تماماً أنها خاليةٌ مِنْ مَطْلَبِه.

فأقرَّ بذلك القناعةَ في نفوسِ الإخوة، أنه جادٌ في البحثِ عَنْ مفقودٍ لا يُعرَفُ مكانه.

وعَمَدَ إلى حبسِ الأنفاسِ، وشَدَّ انتباهِ الجميعِ في لحظاتِ قلقٍ وتأزُّمِ نفسي شديدٍ، والكلُّ ينتظرُ انتهاءَ التفتيشِ.

فيكونُ قد أعدَّ الجوَّ الملائمَ في المجلسِ، لِتقبُّلِ لحظةِ استخراجِ الصُّواعِ مِنْ أمتعةِ أخيه الأصغرِ.

**اللطيفة الثالثة:** في لَحْظَتنا لعودةِ تَأنيثِ المفقودِ في قولِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ وبالعودةِ إلى الآياتِ السابقة، نُلَاحِظُ أَنَّ الله تعالى يقولُ:  
في الآيةِ السبعينِ: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ بالتأنيثِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ والسبعينِ: ﴿قالوا نَفَقْدُ صُواعِ الملكِ وَلِمَنْ جاءَ به﴾ بالتذكيرِ.

وفي الآيةِ الخامسةِ والسبعينِ: ﴿قالوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾، بالتذكيرِ فَنُلاحِظُ أنها تُؤنِّثُ في حقِ يوسفَ عليه السلام، وتُذكِّرُ في حقِ الآخرينِ.

وتفسيره: أَنَّ مكانةَ يوسفَ عليه السلام، في مرتبتهِ الحاكميةِ العاليةِ، تجعلُ من هذهِ الأداةِ القيمةِ المرتفعةِ الثمنِ، سِقَايَةَ يَكِيلُ بها الكَيْلَ للناسِ، فهي على أهميتها، تَضَعُفُ في يدهِ.

أما في حقِ الناسِ، فهي تَبْقَى صُواعَ الملكِ، الذي يَشْهَدُ أهميةً ليسَ فقط مِنْ قِيَمَتِهِ المادِيَّةِ، بل مِنْ رَهْبَةِ نَسْبَتِهِ إلى المَلِكِ.

فانظرُ أخي المؤمنِ، إلى دِقَّةِ القرآنِ الكريمِ في التعبيرِ.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿كذلكِ كِذْبا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيأخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِكِ﴾.

### في هذا الشطر من الآية، لطائف عدة:

**اللطيفة الأولى:** في وقوفنا عند هذا التكريم الإلهي ليوسف عليه السلام، في جمالية لغوية فائقة.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. أي: جَمَعْنَا الكَيْدَ له، وذلك باستجماع كافة العناصر الصعبة التحقيق، حتى يصل إلى هذه اللحظة الحاسمة، بنجاح خُطَّتِه، فكانَ تيسيرُ اللهُ تعالى هو الأساس، وما تَسَلَّسَلُ الأحداثِ على النحو الذي رأينا، إلا انصياعٌ لهذا الأساس:

فَحَصَلَ القَبُولُ والتوافقُ مِنَ الأَخِ الأصغرِ بدايةً، على التَعَاوُنِ لوضعِ الصُّوعِ في رَحْلِه.

ثم تيسيرُ الظروفِ لوضعِ السقايةِ في رحلِ أخيه، بعيداً عن الأعين.

ثم عدمُ انتباهِ الإخوة، وصرفُ أنظارِهِم عنِ النظرِ في الرُّحالِ.

ثم قبولِ الأخوةِ للاحتكامِ إلى شريعتهم عند إصدارِ الحكمِ.

ثم استخراجِ الصُّوعِ مِنْ رَحْلِ أخيه الأصغرِ، على ما رأينا في الآية.

**اللطيفة الثانية:** في لَحْظِنَا، أنه حتى وإن كَانَ فضلُ اللهُ تعالى بالمعونةِ حاضراً. إلا أنه ليس مُطْلَقاً مِنْ غيرِ قيد، تثبيتاً لبشرية الأنبياء والرُّسُلِ الكرامِ، فهو يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعْطِي بِمُقْدَارِ، وَيَسْمَحُ لِسُنَنِهِ الكونيةِ بالجري على أنبيائه ورُسُلِهِ، كمثلي الألمِ والجوعِ والعطشِ، والتعرضِ للظلمِ والسجنِ، وإغلاقِ الغيبِ ما خلا الكشفِ والإلهامِ: وفي قصة يوسف عليه السلام، نرى اثنين مِنْ أنبياءِ اللهُ تعالى: يعقوبَ عليه السلام، ويوسفَ عليه السلام، يُعْطِيهِمَا اللهُ تعالى مِنْ عِلْمِهِ بِمُقْدَارِ، وَلَا يَفْتَحُ لهُمَا كُلَّ أَبْوَابِ الكَشْفِ والغَيْبِ، وَيُؤَيِّدُهُمَا بالصبرِ والحكمة، والفقهِ والدراية.

**اللطفة الثالثة:** أن الله تعالى، أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا تَفْصِيلاً وَإِضَاحاً، لماذا قام يوسف عليه السلام، بحمل الإخوة على الاحتكام إلى شريعتهم، بدل الاحتكام إلى شريعة مِصْرَ في ذلك الزمان:

ذاك أن القانون المعمول به في مِصْرَ، يقضي بأن يُعْرَمَ السارق مادياً، فيدفع مبلغاً مُوازياً لما سرق أو لقيمته.

وهذا هو حكم دين الملك.

وبموجب هذا الحكم، فهو لن يستطيع أن يحتفظ بأخيه، وهذا هو هدفه من كل هذه الواقعة.

أما بموجب أعمال حكم شريعة يعقوب عليه السلام، فحكم السارق الاسترقاق، وهذا ما يُريده يوسف عليه السلام ظاهراً.

ولن يستطيع أعمال هذه الشريعة، إلا بطلبهم، ولقد طلبوا.

فهذا معنى قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَزِغَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

في هذا الشطر من الآية، لطائف عدة:

**اللطفة الأولى:** في لحظنا لهذا التكريم الثاني ليوسف عليه السلام، في الآية الواحدة. فالله تعالى يقول عنه: ﴿نَزِغَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾.

وَنَسْمَعُ قَوْلًا مُّطَابِقًا فِي الثَّنَاءِ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ وَالثَّمَانِينَ، إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وأَيُّ شَهَادَةٍ وَتَكْرِيمٍ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ؟

وَتُنْسَاقُ هَذِهِ الْكِرَامَةُ عَلَى وَاقِعِ حَالِ الْخَلْقِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ الْخَلْقِ، وَيَهْبُطُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَهْبُتُ آخَرِينَ، وَمِنَ الْعِلْمِ مَا هُوَ مُكْتَسَبٌ بِالْعِلْمِ. وَمِنْهُ مَا هُوَ مُوهَبَةٌ وَعَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحْسِنُ اسْتِخْدَامَ الْعِلْمِ بِمَا يُرْضِي اللَّهُ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ مِنْ أَبْوَابِ الْوَسْوَسَةِ وَالغِيَايَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِلإِنْسَانِ، فِي اسْتِغْلَالِ مَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّاسِ مِنْ فَتُوحِ الْعِلْمِ وَالتَّوَقُّفِ، وَالاخْتِرَاعَاتِ وَالتَّقْنِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ. وَنَحْنُ نَلْحَظُ بِاسْتِغْرَابٍ وَدَهْشَةٍ، أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخْزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يَدْعُ فَتْحًا عِلْمِيًّا وَاحِدًا، مَهْمَا كَبُرَ أَوْ صَغُرَ، إِلَّا وَأَذْلَى فِيهِ ذُلُّهُ، وَذَرٌّ فِيهِ قَزَنُهُ، وَجَعَلَ فِيهِ بَابًا لِمُفْسَدَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ. وَالحَدِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ يَطُولُ.

**اللطفية الثانية:** فِي وَقُوفِنَا عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ﴾ وَفِي هَذَا، إِظْهَارٌ لِعِظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَذَكِيرٌ لِلنَّاسِ بِضَالَّةِ وَضَحَالَةِ عِلْمِهِمْ، فَلَا يُصِيبُهُمُ الْغُرُورُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الْعِلْمِ، وَلَقَدْ حَصَلَ، فَاعْتَرَّتْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِمَا نَالُوا مِنْ نَصِيبِ الْعِلْمِ، وَتَعَالَوْا عَلَى الْعِزَّةِ الإِلَهِيَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَلَكَوْا كَامِلَ الْعِلْمِ، وَكَامِلَ الْحَقِيقَةِ، وَبَلَغَ بِهِمُ الْغُرُورُ أَنْ أَنْكَرُوا وُجُودَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَعَمِيَتْ أَبْصَارُهُمْ عَنِ حَقِيقَةِ جَهْلِهِمْ، فَقَسَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ.

هَكَذَا فِي الْقُرُونِ الْعَابِرَةِ، وَمِثْلُهُمْ فِي أَيَّامِنَا، وَلَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّةٌ وَاحِدٌ يَنْظُرُ قَلِيلًا إِلَى الْوَرَاءِ، فَيَرَى الْعِبْرَةَ بغيرِهِ، فَيَعْتَبِرُ.

**اللطفية الثالثة:** لُغُوبِيَّةٌ، فِي وَقُوفِنَا عِنْدَ جَمَالِ وَقَعِ الْجِزْسِ فِي آذَانِنَا وَنَحْنُ نَقْرَأُ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ﴾ فَقَدْ جَاءَتْ كَلِمَةُ عِلِيمٍ، غَيْرَ مُعْرِفَةٍ بِأَلِ التَّعْرِيفِ، وَإِنْ تَكُنْ حَقِيقَةً هِيَ كَذَلِكَ.

إذ إنَّ المعنى هو: والله تعالى هو العليمُ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ، لكنَّ الصِّيَاغَةَ في الآيةِ أجْمَلٌ وأعلى.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب توسيد الأمر لأهل الإختصاص في المسائل الدقيقة التي تحتاج دقة وإتقاناً، ومن الخطأ التهاون في تنفيذ الأمور الصعبة وإيكالها إلى من لا خبرة أو إختصاص عندهم، فيكون الضرر الحاصل أشد وأعقد، ولو يستوجب إصلاحه جهداً أكبر وكلفة أعلى.

٢ - للدلالة بقولنا: «فوق كل ذي علم عليم». على أن الإنسان، مهما أوغل في التقدم العلمي والفتوحات والإكتشافات والإختراعات فإن علمه يبقى قاصراً، لأنه لا يحصل على هذا العلم إلا بإذن من الله تعالى، وهو العليم الخبير الذي لا حدود لعلمه، فليدرك هذا الإنسان حدود علمه ومعرفته، وقصور ذهنه عن بلوغ ما لم يأذن به الله تعالى، وليتواضع لله وليشكره على ما آتاه، ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ  
وَلَمْ يَبْدَاهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٩]

تتابع معنا هذه الآية أخي المؤمن، هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام، وقد وصلت حُطَّتُهُ إلى غَايَتِهَا، بأنَّ ظَهَرَ الصُّوَاعُ المفقود، وَوُجِدَ في رَحْلِ الأَخ الأصغر، وصار إخوة يوسف عليه السلام، محطَّ أنظارِ الجميع، وقد دفعوا عن أنفسهم تُهْمَةَ السرقةِ دُفْعاً شديداً في سابقِ الآيات، ما حَمَلَهُمْ على

إعلان استعدادهم لتطبيق شريعتهم على السارق، فيما لو كانَ مِنْهُمْ، والعقابُ في شريعتهم، هو الاسترقاق.

فلتأمل الآية الكريمة، ولنستمع إلى جوابهم.

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عدة:

**اللطيفة الأولى:** في وقوفنا عند ما صدرَ منهم مِن اتهامِ ليوسفَ عليه السلام، مِنْ سرقَةٍ، معَ عدمِ الحاجةِ إلى هذا الاتهام، للخلاصِ من هذا الموقفِ الذي هُم فيه.

إلا أن أهمية هذا الإعلان، تنبُعُ مِنْ ضرورةِ إخراجِ مكانِ السرائر، وهذا ما لا يحصلُ إلا في مثلِ هذه المواقف.

وهذه حقيقةٌ علميةٌ نتوقفُ عندها قليلاً:

فلقد يُضمرُ لكَ مُحدِّثُكَ البُغْضَ وهو يُظهِرُ لكَ الودَّ، ويستطيعُ أن يستمرَّ في إظهارِ الودِّ، ما دامَ مُمسِكاً بزمامِ حُضورِ وعيه، وكَبَتِ مشاعره..

أمَّا حالُ الغضبِ أو الإحصارِ، فيصبِحُ الضَبْطُ الواعي أضعفَ ممَّا يسمَحُ للمشاعرِ المكبوتةِ الخفيةِ، بالظهورِ إلى العلنِ: إمَّا بكلماتٍ تُسمِّيها زلةٌ لسان، أو تصرُّفٍ نابٍ، أو مجردِ إعراضٍ، أو تذرُّرٍ أو زفرات..

وهذه أصدقُ بكثيرٍ من كلِّ ديباجاتِ الكلامِ المُنمق.

ولقد سقطَ إخوةُ يوسفَ عليه السلامُ في هذا الامتحان.

فلقد أحصروا إحصاراً شديداً، أخرجهم عن طوَرهم، فما استطاعوا كَبَتِ مشاعرههم حِيالِ يوسفَ عليه السلامِ وأخيه، فكانَ أوَّلَ ما قالوا دِفاعاً عن أنفسهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

**اللطيفة الثانية:** في قولهم: ﴿أخ﴾ بعدم التعريف، وذلك لظنهم أن العزيز لا يعرف شيئاً عن مسألة يوسف عليه السلام، ونفهم منها التباعد، وكأنهم قصدوا بذلك إرضاء نفوسهم بالفصل التام ما بين مجموعتهم المتضامنة كوحدة متفاهمة، تعمل بتناسق تام، وبين يوسف عليه السلام، والأخ الأصغر، من جهة أخرى، فتقع العبارة بدلالة عالية إذ قالوا: ﴿أخ له﴾.

**اللطيفة الثالثة:** في إجراء مقارنة بين هذا الموقف، والموقف السابق في الرحلة السابقة، حين جاؤا أول مرة يطلبون المؤمن.

ففي المرة السابقة، لم يذكروا ابتداءً وجود أخ أصغر لهم، ما زال عند أبيهم، لم يحضر معهم.

فدفعهم يوسف عليه السلام إلى الحديث عنه، فتحدثوا عنه عرضاً، ولم يجعلوا للحديث عنه أي اهتمام.

فاستمسك يوسف عليه السلام بمجرد ذكره، وانقلبت الأمور كلها، رأساً على عقب، وصارت مسألة إحضاره هي على رأس الأمور أهمية.

وها هم الآن يذكرون يوسف عليه السلام عرضاً بقولهم: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾.

فلم يجدوا من العزيز أي اهتمام بمعرفة التفاصيل عن هذا الأخ الجديد الذي يتحدثون عنه.

وقد كان ينبغي للحاذق فيهم، أن يتساءل عن سبب عدم سؤال العزيز عن هذا الأخ الغائب، كما سأل عن الأخ الأصغر، في المرة السابقة.

لكن الله تعالى، شاء أن يصرفهم عن هذا التساؤل.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم سررنا مكانا والله أعلم بما تصفون﴾.

في هذا الشطر الأخير من الآية، لطائف عدة:

**اللطفية الأولى:** في التقديم والتأخير الذي نلحظه في العبارة:

فحينَ نَسَمَعُ: ﴿فَأَسْرَهَا﴾ ونَسَمَعُ: ﴿ولم يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ونَفْهَمُ أَنَّ المقصودَ هي العبارةُ التالية، على الإسرارِ وعدمِ الإبداءِ.

ويكونُ معنى الآية: فَأَسْرَّ يوسُفُ الإجابةَ في نفسه في ذلكَ الوقتِ، ولم يُبْدِهَا لهم في تلكَ الحالة، وأجَلَ الحديثِ بها إلى وقتٍ آخر، لكنه قالها في نفسه إذ قال: ﴿أنتم شرُّ مكانا والله أعلم بما تصفون﴾.

**اللطفية الثانية:** في تعرُّفنا إلى مَعْلَمٍ جديدٍ من مَعَالِمِ شَخْصِيَةِ يوسُفِ عليه السلام:

فلقد اتهموه علناً بالسَّرِقة، وهو منها بريء.

وهيأجُ النفسِ للدفاعِ عنِ حالِها، قريبٌ جداً عندَ أغلِبِ الناسِ وخصوصاً عندَ المُقدِرَةِ.

ويوسفُ عليه السلام، في حالٍ من القُوَّةِ والسلطة، تَسَمَّحُ له بالاعتصامِ مِنْهُمْ، إمَّا علناً، أو دون إفصاحٍ عن حقيقته..

إلا أنه آثر الصَّمْتِ العَلَنِيَّ، وأعملَ ضَبْطَ النفسِ، ولم يُعْطَلْ حُطَّتَهُ التي بدأ بها، ولم يَتَفَعَّلِ، رَغَمَ تعرُّضه للتحريضِ.

فهو بذلك، يُرِينَا جانبَ التعقُّلِ، والصبرِ والحِكْمَةِ العالِيَةِ، في التعاطي مع الأحداثِ.

بخلاف إخوته الذين سارَعُوا إلى الانفعالِ. فكالوا له الاتهامَ جُرَافاً.

**اللطفية الثالثة:** في قول يوسف عليه السلام: ﴿والله أعلم بما تصفون﴾.

فهذا تعليمٌ لنا وإرشاد، وذلك بإيكال الأمرِ إلى الله تعالى، حال وقوع ظلم لا نستطيعُ دفعَه؛ ففيه تهديئةٌ للنفس، ويقين، بأن الله تعالى يَحْفَظُ حقوقَ المظلوم، حتى ولو بعد حين، حتى ولو إلى يومِ الدين.

وتلك مِيزةٌ لا نَجِدُها إلا عندَ المؤمنين الصابرين، القانتين لله تعالى. وقد امتدحهم الله تعالى في كتابه العزيز إذ قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾<sup>(١)</sup>.

وجميلٌ منا، في النهاية، أن نتأمل الحالَ النفسيةَ للإخوةِ في هذا المشهدِ من مشاهدِ القصة:

فلقد تحوّل شعورهم من الحُبُورِ عند ملء الكيل إلى الدهشة والاستغرابِ عند إيقافهم ورميهم بالسرقة.

ثم تحوّلَت الدهشةُ إلى تفاعلٍ مع الحَدَثِ، وطلبِ تطبيقِ شريعتهم، حال وجودِ الصُّوعِ في رَحْلِ أجدهم.

ثم تحوّل التفاعلُ إلى يقين بالبراءة، واطمئنانٍ داخلي بأنَّ المسألةَ كُلُّها مجردُ ظنٍ وخطأ.

ثم انقلبَ اليقينُ إلى صدمةٍ حين استخرجَ العزيزُ الصُّوعَ من رحلِ الأخِ الأصغر.

ثم تحوّلَت المشاعرُ عندَ مرورِ الصِّدمةِ، وتبدّلتِ مِنَ العِزَّةِ والرِّفعةِ والأنفةِ، إلى الصَّغارِ والضُّيقِ والإحصار.

ثم تصاعدتْ هذه المشاعرُ لتتحوّلَ إلى غضبٍ على الأخِ الأصغر.

ثم توسَّعتْ لتشملَ من جديدٍ يوسفَ عليه السلام، رَغْمَ غيابِهِ..

(١) [سورة البقرة، الآية: ١٥٥-١٥٦].

ثم اتجهت مشاعرهم إلى تبرئة أنفسهم علناً، بإعلان فضل الأخ الأصغر عنهم، وإلصاق التهم بيوسف عليه السلام وأخيه.

إلى أن يصلوا إلى حالة الغم الشديد، على ما سئرى في لاحق الآيات.

### مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأزمات تكشف ما في الصدور، وتفصح المستور، فما أخفت الوجوه من مشاعر دفينه. تطفو على السطح عند الضيق والإحصار، ثم يعقبها الندم بعد انقشاع عاصفة الغضب. والأولى أن تكون القلوب في الأصل ناصعة بيضاء نقية سمحة، حتى إذا ما جاءت ثورة الإنفعال، كان الظاهر كالباطن، وما وجد الشيطان في النفوس إلا النقاء انكفاً خاسئاً مكسوراً على عقبيه.

٢ - للدلالة على وجوب ضبط النفس حال الإستفزاز، حتى وإن كان الإستفزاز غير محق، لما يستتبع ذلك من الغضب، مع تصاعد حال التوتر بين الطرفين، مما يؤدي إلى مستويات عالية جداً من الحنق قد ينتج عنها ذبول لا تحمد عقباها، غير متوازية إطلاقاً مع مسبب التوتر الأساسي، لكنها فرصة الشيطان اللعين للإيقاع بين الناس بدفعهم إلى مراحل متقدمة في التناحر والتنافر والخلاف، وهذه هي سعاده الكبرى.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ إِذًا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٠]